ثورة الجماهير
عند اورتيجا اي جاسيه

د. حسن حنفي

أولاً: الكتاب، والاسلوب، والمنهج، والنسق.

يُعتبر أونامونو وتلميذه أورتيجا أشهر ممثلين للوجودية الاسبانية وللفلسفة الاسبانية على الإطلاق منذ سواريز Suarez في القرن السادس عشر. جعل الاستاذ فلسفته كلها تدور حول الفرد كما يتصوره كيركجارد ونيتشه وبسكال مأساة تنتهي في حشرجة الموت[1]. كما يُعتبر أورتيجا أشهر فيلسوف إسباني معاصر. قال عنه كامو «ربما يكون أورتيجا إي جاسيه بعد نيتشه هو أعظم كاتب أوروبي، وفي الوقت نفسه يصعب أن يوجد كاتب أكثر إسبانية منه». وُلد أورتيجا عام 1883 في مدريد. وبعد دراسة جادة للفلسفة في اسبانيا سافر إلى المانيا، ودرس الفلسفة، وتأثر بالفلسفة الحيوية عند دريش ودلتاي وكذلك بعلم الاجتماع الحيوي عند زمل Zimmel ونيتشه. كما تأثر بمدرسة ماربورج والتي كثيراً ما يشير إلى أعلامها مثل بول ناتورب وهرمان كوهين وان لم يشر إلى كاسيرر. وبعد رجوعه إلى مدريد عُين أستاذاً لكرسي الميتافيزيقا في الجامعة المركزية وظل يشغلها حتى أتت الهجمة الدكتاتورية على الجامعة لإذلالها والقضاء على حريتها واستقلالها. ثم أسس عام 1915 مجلته «اسبانيا» وجعلها منبراً له يعبر من خلالها عن فكره، ويقوم بدوره كباعث للفكر الاسباني سواء في ميدان الفلسفة الخالصة أو في ميدان العلوم الاجتماعية والسياسية. ثم أسس عام 1924 «مجلة الغرب» فأصبحت أكثر المجلات تعبيراً عن الحياة العقلية في

(*) كُتب النصف الأول من هذا المقال عن «الانسان الجماهيري» في 1969 وهي الفترة التي كُتبت فيها «قضايا معاصرة» بجزأيه بعد هزيمة حزيران (يونيو) 1967 لإعادة بناء الروح القومية من خلال الفلسفة. ولم تكتمل الدراسة ربما لكثرة ما كتبت وربما لعيوب في المنهج الذي اتبعته في هذا الوقت وهو قراءة تاريخ الفكر من خلال أزمة العصر. وأعود اليه بعد ثمانية عشر عاماً لإكمال الجزء الثاني واعادة كتابة الجزء الأول مستعملاً طريقة «الشرح الأوسط» عن ابن رشد أي البداية بعبارة لأورتيجا ثم شرحها والاضافة عليها واعطاء أمثلة جديدة كما فعل القدماء.

(**) كلية الآداب، جامعة القاهرة.

إسبانيا كما فعل جان بول سارتر نفس الشيء في «الأزمنة الحديثة». وإلى جانب المجلة قام بنشر عدة مؤلفات تضم مقالاته التي نشرها في المجلة من قبل مع مقدمات جديدة. (وفي عام 1918 قبل دعوة للذهاب إلى بوانس أيرس عاصمة الأرجنتين لإلقاء عدة محاضرات في الجامعات الارجنتينية لاقت رواجاً ضخماً خاصة في عامي 1929/1928. وبعد سقوط الدكتاتور بريمو دي ريفيرا (1930) عاد أورتيجا إلى أسبانيا ليشغل كرسي الفلسفة الذي تركه من قبل بسبب عدائه للدكتاتورية. وبدأ في كتابة سلسلة من المقالات تتعلق بالحياة العامة في مجلة «الشمس» تتعلق كلها بنقد صريح للنظام الملكي، ومقالات أخرى حتى آخر ديسمبر 1930 كان لها أبلغ الأثر في اسبانيا ما قبل الثورة. ومنذ ذلك الحين أصبح أورتيجا شخصية سياسية عامة، وكوّن مع الدكتور مارانون maranon والكاتب بيريز دي آيالا Perez de Ayala جماعة سياسية بعنوان «في خدمة الجمهورية». وقد كان لهذه الجماعة حوالى عشرة نواب في البرلمان الدستوري، من بينها أورتيجا نفسه. ومنذ ذلك الوقت عُرف اورتيجا خطيباً، وكاتباً، وسياسياً، ومفكراً، ورجل دولة، وبعد رفضه تولي كل المناصب التي عرضتها الحكومة عليه آثر أن يظل استاذاً جامعياً، ومفكراً حراً، كاتباً وناقداً. وتوفي أورتيجا عام 1955.

وكتاب «ثورة الجماهير» La Révolte des Masse[2] هو أشهر كتاب لأورتيجا. ولا يكاد يُذكر اسم أورتيجا إلا ويُذكر معه أنه هو مؤلف «ثورة الجماهير» واذا ما أراد الناشر التعريف بكتاب أقل شهرة منه فإنه يشير الى أن صاحبه هو مؤلف ثورة الجماهير حتى أصبح الكتاب نقطة إحالة لكل مؤلفات أورتيجا مثل «الانسان والناس»، «الانسان والأزمة»، «موضوع عصرنا الحديث» «رسالة الجامعة». ويُعتبر، على حد قول احدى المجلات الامريكية بالنسبة للقرن العشرين بمثابة «العقد الاجتماعي» لجان جاك روسو بالنسبة للقرن الثامن عشر و«رأس المال» لماركس بالنسبة للقرن التاسع عشر وهو ليس كتاباً مؤلفاً منذ البداية، يحتوي على مذهب متسق، بل هو مجموعة من المقالات نشرها أورتيجا في جريدة يومية تصدر في مدريد عام 1926 كما هي العادة مع كثير من الفلاسفة المعاصرين الذين استعملوا أساليب المقال واليوميات والتأملات والرواية والقصة والمسرحية.. الخ دون اللجوء إلى الأسلوب العقلي التقليدي القائم على تحليل التصورات والمفاهيم وبناء الانساق. استعمل أورتيجا الكتابة الصحفية كأداة للتعبير. فالقدر الأعظم من مؤلفاته ان لم تكن كلها قد نُشرت من الأصل في صحف اسبانية خاصة في المجلة التي أسسها وهي «مجلة الغرب» التي ذاعت واشتهرت بفضل كتاباته. لم يكتب أورتيجا كتاباً واحداً ذا أبواب وفصول. ولم يدرس موضوعاً واحداً دراسة تصورية محضة أو تاريخية صرفة للجمهور الخاص، بل كتب في معظم الموضوعات العصرية بأسلوب المقال للجمهور العريض. فهو بهذا المعنى كاتب Essaiste أكثر منه فيلسوفاً. خاطب أورتيجا عامة الناس لا خاصتهم، أساتذة كانوا أو رهباناً. ربما استطاع أورتيجا ان يجمع بين الأدب والفلسفة والصحافة في أسلوب جديد أعطاه شعبية كبيرة وجعله أقرب إلى فلاسفة الشارع ومفكري الرصيف منه إلى استاذ الجامعة وفيلسوف الرواق. كما انه ربما استطاع الجمع بين أساليب الأدب والخطابة وبين طرق الفلسفة والبرهان بغية التأثير على الجماهير وكسبها في صف تياره الجديد. وهذا النوع من الكتابة يعطي صاحبها شهرة فائقة وجمهوراً عريضاً داخل وطنه وخارجه. وقد تصيب هذه الشهرة صاحبها ببعض الغرور فيتكلم في كل شيء، ويعرض الأفكار اعتماداً على مجهودات الآخرين. يكتب أي شيء، فالصحيفة

موجودة، والقراء ينتظرون اعتماداً على سلطة الكاتب وبصرف النظر عن تحليل الموضوع. ونتيجة لقوة الدفع التي تتولّد عن اتصال الكاتب بجمهوره قد تنشأ لديه رغبة لتملق الجماهير واكتساب ولائهم متنازلاً عن الدقة الفلسفية والتحليل العلمي الرصين. وهنا يتحول الكاتب إلى فنان يحرص على جمهوره حتى وإن تنازل عن فنه فيصبح الجمهور هو الذي يوجه الكاتب كما أن شباك التذاكر هو الذي يوجه الفنان. وقد يصبح الموضوع ذاته غامضاً في الذهن بحيث لا يستطيع القارىء المتخصص ان يعرف ماذا يريد أورتيجا أن يقول فينتقل بين عديد من الموضوعات، يسهب في البعض دون البعض، ويغيب التركيز على صلب الموضوع وتكثر أسماء الأعلام والشخصيات والدول والعواصم طلباً للعصرية وايحاء بالأمثلة التي تصور تحليلات نظرية غامضة أو غائبة. لذلك غلبت على كتابات أورتيجا التحليلات السريعة، والانتقال من موضوع الى موضوع بلا تعمق كاف، يذكّر القارىء بما قيل سلفاً وما سيُقال آنفاً، ثم يعود ويرجع إلى الموضوع الأول بعد استطراد طويل وكأنه ما يخطر بباله يعبر عنه دون ما بنية للموضوع أو تصور له. ومن ثم كانت كتاباته أقرب إلى الأدب الصحفي منها إلى المقال الفلسفي. مهمتها تنوير القراء وتثقيف العامة وخلق تيار فكري سياسي عن طريق الفلسفة واعتماداً عليها. فكانت أشبه بكتابات رسل المتأخرة عن السعادة والجنس والتربية والسلطة والفرد والحرب والسلام والبلشفية... الخ بعيداً عن الدراسات المتخصصة لجمهور متخصص. ومن جراء التعامل مع الفلسفة باعتبارها محاولات Essais فقد غاب المقال الفلسفي الذي يعتمد على مقدمات وينتهي إلى نتائج ويقوم على براهين واستدلالات، تطبيقاً لخطوات منهج وانتقالاً طبيعياً من فكرة إلى أخرى. ومع أن معظم الموضوعات المدروسة ملموسة وعصرية ويمكن الوصول فيها إلى نتائج محددة إلا أن أورتيجا تعامل معها على نحو مجرد واسع وشامل بالرغم من انتسابه إلى المنهج الظاهرياتي لوصف الموضوعات باعتبارها تجارب شعورية حقّة، فردية واجتماعية مثل «ثورة الجماهير». ولكن ليست كل كتابات وصفية ظاهريات. فالظاهريات وصف للماهيات لا للوقائع، وإدراك للدلالات لا للأحداث وذلك من أجل الوصول إلى بنيتها أو إلى مناطقها الوجودية.

وتعبير «ثورة الجماهير» يلقى هوى في النفوس خاصة لدى شعوب العالم الثالث في مرحلتها الراهنة وبعد الثورة الاسلامية في إيران وثورات السودان وهايتي والحركات الشعبية في كوريا الجنوبية ومظاهرات الطلاب والانتقاضات الشعبية في مصر والعالم العربي والاسلامي في السنوات الأخيرة والتي قد تستمر في التسعينات رداً لاعتبار ثوراتها في الخمسينات والستينات وبعد انحسار الثورة المضادة في السبعينات والثمانينات. فالعنوان «ثورة الجماهير» مبهر. إذ اننا نعيش في عصر الجماهير. ومن منا لا يود ثورة الجماهير؟ ولكن العنوان البراق قد يخفي موضوعاً أقل بريقاً وأكثر غموضاً. ونتيجة لإعطاء الأولوية للاسلوب على الموضوع أصبح الموضوع غامضاً مسطحاً، وأصبحت معظم العناوين خادعة، عناوين براقة وموضوعات عادية مثل «ثورة الجماهير» «الانسان والأزمة»، «الانسان والناس»، «التاريخ باعتباره نسقاً»، «التطابق والحرية»، «ما هي الفلسفة؟»، «نشأة الفلسفة» وقد يكون أهم ما في الكتاب هو العنوان الذي أثار في الغرب الاذهان من قبل منذ الثورة الفرنسية وثورة 1848 في المانيا وثورات الشباب في العالم كله في 1968 والذي ما زال يثير الانتباه بالنسبة للشعوب المقهورة غير المنظمة التي تسيطر عليها النظم الحاكمة بأجهزة الأمن والجيش والشرطة

والأمن المركزي وأجهزة المخابرات العامة والخاصة.

ويبدو أن تعبير «ثورة الجماهير» تعبير اشتباهي يوحي بالايجاب والسلب في آن واحد. فهل ثورة الجماهير ظاهرة سلبية؟ وقد يكون هذا هو المعنى الذي يقصده أورتيجا أم ظاهرة ايجابية وهو المعنى الذي يثير هدى النفس أشجاناً وأحزاناً؟ تعني ثورة الجماهير بالمعنى السلبي الجماهير في مقابل الفرد، والأغلبية في مقابل الأقلية، والدهماء في مواجهة الصفوة والديماغوجية نقيض الارستقراطية، التسطح والثقافة الانسان الآلي الأصم في مقابل العميق والنبيل، الانسان العظيم الحركي الحر. في حين تعني «ثورة الجماهير» لدى شعوب العالم الثالث أملاً وحركة وحياة. إذا كان المعنى السلبي هو المقصود فهل يجعل ذلك أورتيجا من دعاة النظريات العنصرية والفاشية والنازية والقائمة على الصفوة المختارة القادرة بما تتمتع به من مزايا أن تقود الجماهير الصماء؟ هل هو من أعداء النظم الاشتراكية بوصفه للعامة بأنها دهماء، آلية صماء؟ وماذا عن «ثورة الجماهير» التي طالما تغنت بها شعوب العالم الثالث في مرحلة التحرر من الاستعمار في القارات الثلاث؟ هل يقصد الوضع الراهن للجماهير في البلاد النامية وصلة طبقات الشعب الكادحة بالطبقات الجديدة في عصر ما بعد التحرر وبدايات الحركات الشعبية منذ أواخر السبعينات حتى الآن؟ يمكن الاجابة على هذه الاسئلة بالبحث عن الظواهر الاجتماعية والسياسية التي يراها أورتيجا حاملة لثورة الجماهير. هناك احتمالان: الاول أن «ثورة الجماهير» يشير أورتيجا بها إلى ثورات الشعوب في القرن العشرين، البلشفية في روسيا وصعود النازية (الفاشية) في المانيا وهو الاحتمال الأرجح نظراً إلى اشارات أورتيجا الدائمة إلى هاتين الثورتين ودون الاشارات الى ثورات سابقة مثل الثورة الفرنسية أو ثورة 1848 في المانيا. وبهذا المعنى يشير أورتيجا إلى ظاهرة أوروبية صرفة هي الفاشية والبلشفية دون الحديث صراحة عن النازية. ويدعم هذا الاحتمال نقد الاتحاد السوفيتي والدفاع عن الليبرالية الفردية، صراحة أو ضمناً ودون أي نقد لأميركا والغرب باستثناء نقد اخلاقي شائع بالخواء الروحي والاخلاقي والمعروف عند برجسون وشيلر وغيرهم ممن يبنوا «قلب القيم» في الوعي الأوروبي المعاصر. والاحتمال الثاني هو ثورة الجماهير في الحرب الأهلية الاسبانية خاصة وأن أورتيجا عُرف بأنه مفكر الجمهوريين وناقد الملكية في اسبانيا. والغريب انه لا توجد شواهد على ذلك من نصوص أورتيجا. بل لا يكاد يشير إلى الحرب الأهلية الاسبانية وموقفه من الجمهوريين ضد الملكيين. أما كتابه «اسبانيا بلا عمود فقري» The Invertebrate Spain فقد كتب قبل الحرب الأهلية دفاعاً عن وحدة البلاد. فإذا كان أورتيجا مفكر الجمهوريين فانه يكون لثورة الجماهير معنى ايجابي والحال ليس كذلك، في حين أهبت ثورة الجمهوريين خيال المفكرين والأدباء كما هو الحال في رواية «لمن تدق الأجراس» لشتاينبك. حتى هذان الاحتمالان غير واضحين في «ثورة الجماهير». بل ان السؤال النهائي في الفصل الختامي «إلى أين ينتهي السؤال الحقيقي» والتي هي أشبه بخاتمة للكتاب كله لا يتضح منها غرض الكتاب، ولا تحتوي الاجابة الرئيسية على: ماذا تعني ثورة الجماهير؟ أية ثورة وأية جماهير؟ وبالنسبة لنا في العالم الثالث لا نجد أيضاً إجابة لهمومنا وهي حركات التحرر الوطني وما تولد عنها من ثورات مضادة في القرن العشرين. وماذا عن انتحار الشعوب وموتها جوعاً وعطشاً؟ كما هو حادث في أثيوبيا وتشاد والسودان وماذا عن نقل الشعوب خارج أوطانها ووضع شعوب أخرى كلها كما هو حادث في فلسطين؟

ومهما يكن من شيء، هل يمكن العثور على نسق

موحّد يمكن على أساسه فهم ماذا تعني «ثورة الجماهير»؟ ان نقطة البداية في فلسفة أورتيجا هي «العقل الحيوي» في مقابل العقل المجرد أو العقل النظري كما تصوره المثاليون. العقل الحيوي يثبت الفرد وواقع الاشياء في حين ان العقل النظري يقضي على واقعية الاشياء. هو العقل الرياضي الذي يحيل العالم إلى معادلات أو العقل الطبيعي الذي يحيله إلى رموز أو العقل الفلسفي الذي يحيله إلى تصورات. في مقابل هذا العقل التقليدي يضع أورتيجا العقل الحيوي، وهو أسلوب في التعامل، طريقة في الحياة أو الحياة نفسها. هو الفعل Le Faire أو تحقيق الحياة باعتبارها مشروعاً. العقل الحيوي هو «الأنا في موقف»، يختار بين الممكنات، مهمته إدراك هذا العالم السابق على الحكم الذي حاول هوسرل في «التجربة والحكم» الكشف عنه وإعادة تكوينه.. بل ان العقل المجرد نفسه هو احدى صور العقل الحيوي. على هذا النحو يسير أورتيجا مع معظم الفلاسفة المعاصرين الذين يجعلون من الحياة نقطة انطلاق لهم كما هو الحال عند برجسون، ووليم جيمس، وماكس شيلر، وشبنجلر، وجويو، وفوييه استمراراً لهذا التيار الذي برأه دلتاي، ودريش من قبل في القرن الماضي وجولد شتين في هذا القرن. الحياة هي الموضوع المشترك بين جميع الفلاسفة المعاصرين كما كانت الرياضة هي العامل المشترك بين فلاسفة القرن السابع عشر بصرف النظر عن اسمائها، «تصور العالم» عند دلتاي، العضو «عند جولدشتين»، «الدافع الحيوي» أو «التطور الخالق» أو «الذاكرة» أو «المعطى البديهي للوجدان» عند برجسون، «الاحساس الدرامي» عند أونامونو، «عالم الحياة» عند هوسرل، «الشخص» عند شيلر ومونييه، «الجسم» عند ميرلوبونتي، حتى الحرية أو العدم عند سارتر، والوجود أو الموت عند هايدغر هي أيضاً بعض صور الحياة. وقد يبدو الجمع بين العقل والحياة مستحيلاً طبقاً لمنطق «إما... وإما...» على التبادل كما هو الحال عند كيركجارد ومعظم اتجاهات الفلسفة المعاصرة. إلا أن أورتيجا يشير بالعقل الحيوي إلى شيء أشبه بالدافع الحيوي على ما يتصوره برجسون وكأنه يريد الابقاء على لفظ العقل تحت تأثير مدرسة ماربورج ودراسته للفلسفة الألمانية. يكفيه ربطه بالحياة ودون اللجوء إلى تراجيديا الحياة كما فعل استاذه أونامونو. والحقيقة ان إحساس العصر بالحياة كنقطة بداية عند معظم الفلاسفة المعاصرين إنما نشأ بسبب حربين عالميتين كان مصير الانسان فيهما معلقاً بين الحياة والموت، ومن رغبة البحث عن معنى الأشياء بالعودة إليها بعد رفض عصر النهضة والفلسفات العقلية وعصر التنوير كل قيم مسبقة، وبعد انهيار القيم البديلة التي وضعها القرن التاسع عشر إذ تحول العلم إلى آلة، والتقدم إلى غزو، والقوة إلى استعمار، والانتاج إلى استغلال، والتضخم الى حروب، والوفرة إلى انتحار، والتقدم إلى يأس.

ونتيجة لذلك، أعطى أورتيجا الأولوية للعقل العملي على العقل النظري كمعظم الفلاسفة المعاصرين. فالافكار Idées لديه أقرب إلى العقائد Inoyances منها إلى التصورات النظرية، والفكر Pensée أقرب إلى الحياة منه إلى المعرفة المجردة connaissance[3]. وهنا يبدو أورتيجا مثل معظم الفلاسفة المعاصرين مع التحليل الوجودي الشائع الذي بدأه كيركجارد والقائم على تعارض الفكر والوجود. كلما فكرت ابتعدت عن الوجود أي عن الحقيقة، وكلما اقتربت من التفكير ابتعدت عن الحقيقة بمعنى الوجود. وهو الموقف الذي لخصه كيركجارد في عبارته المشهورة «أنا أفكر فأنا إذن غير موجود»، رداً على عبارة ديكارت الأكثر شهرة «أنا أفكر فأنا إذن موجود». ولماكان كل فيلسوف معاصر

يثبت موقفه المقابل للعقل بأخذ فيلسوف عقلي والجدال معه حول وظيفة العقل وضرورة الحياة كما هو الحال في الجدال بين كيركجارد وهيجل، هايدغر وكانط، سارتر وديكارت، هوسرل وديكارت، برجسون وكانط،فان أورتيجا سار على نفس المنوال في حواره مع ليبنتز حول «فكرة المبدأ». فكل فكرة فشل للحقيقة، وكل تصور خيانة للأشياء، والحياة العامة ليست فقط عقلية بل هي حياة خلقية وسياسية واجتماعية واقتصادية. إنما العقل محاولة للتقريب والفهم وليس بديلاً من العالم. ان التقابل بين العقل والوجود مثل التقابل بين الوهم والحقيقة[4]. والمثل على ذلك أنه في رأي العقلانيين وأصحاب دوائر المعارف الله مجرد تصور أو تصور مجرد في حين أن اصحاب العقائد يرون أن التاريخ هو المطلق الحقيقي، وأن التاريخ هو واقع الانسان، والله هو هذا التاريخ لأن التاريخ هو كل شيء، الماضي والمستقبل، الأول والآخر، البداية والنهاية. ومن ثم كان إنكار الماضي تناقضاً ووهماً. فالماضي هو طبيعة الانسان يفرض نفسه عليه ولا يستطيع له دفعاً. لذلك نشأت الحركات الدينية الاصلاحية وكأنها عود إلى الماضي وعود إلى البدائية والشيوع كما هو الحال في الاسلام الأول والمسيحية الأولى.

ثم طبق أورتيجا نقطة البداية لديه وهي «العقل الحيوي» على الفرد والجماعة، الأنا والآخر، الانسان والناس، الليبرالية والاشتراكية... الخ، كما انتقل هوسرل من الذاتية إلى العلاقات بين الذوات والتجارب المشتركة وكما انتقل سارتر من تحليل الشعور الفردي في «الوجود والعدم» إلى تحليل الشعور الجماعي في «نقد العقل الجدلي». بل ان «حياة الحوار» في لغة الأنا والأنت أصبحت من اهم الموضوعات في الفلسفة المعاصرة عند جابريل مارسل، ومارتن بوبر، وند ونسل... الخ.

واختلفت الآراء حول الآخر بين «الآخر هو الجحيم»، وبين «الآخر هو النعيم». ويبدو أن أورتيجا من أنصار الرأي الأول وكما يتضح ذلك من «ثورة الجماهير» وتأكيده على الفرد، في مقابل الجماعة، وعلى الذات ضد الانسان الجماهيري، وعلى الليبرالية في مواجهة النظم الجماعية. ولا وسيلة للانتقال من الفرد إلى الجماعة، من الأنا إلى الآخر، ومن العزلة إلى المشاركة إلا عن طريق اللغة بالرغم من قصورها وحدودها وعدم استطاعتها التعبير عن المعاني وإيصالها إلا على وجه التقريب. يخرج الفرد من عزلته ويتصل بالآخرين عن طريق اللغة التي هي في حقيقتها جدل وحوار ولكنه حوار خفي يجد الفرد فيه نفسه وليس حديثاً لكل الناس. ليست وظيفة اللغة إعطاء تعريفات منطقية فهذا يستحيل في حياة الجدل والحوار. فكل تعريف ان لم يكن خاطئاً فانه يدعو إلى السخرية إذ يتضمن بعض التحفظات في الاعلان عن الأشياء الضمنية والتي لا يمكن الافصاح عنها. تحديد مفردات الألفاظ في اللغة إذن مدعاة للسخرية لأن وظيفة اللغة التعبير والافصاح ووظيفة التعريف التغطية والاضمار. يعارض اورتيجا التعريف التقليدي للحصول على التصورات نظراً لأن وظيفة اللغة ليست في إعطاء معلومات بل في فك الحصار عن الفرد من أجل مشاركته مع الآخرين. لا تخضع اللغة لمنطق البرهان بل لمنطق الجدل أي الحوار بين الأنا والآخر، بين الافصاح والاضمار، وبين الجلاء والخفاء، خطوة إلى الامام وخطوة إلى الخلف. واللغة بطبيعتها قادرة على التعبير عن المحكم والمتشابه، والظاهر والمأول، والمقيَّد والمطلق، والمبين والمجمل على ما يقول الاصوليون وعلى ما هو معروف في علوم البيان والبديع والبلاغة. تفترض اللغة وجود المتكلم ووجود السامع ثم تأتي الكلمات بالمصادفة. وقد يخون التعبير، ويُساء استعمال اللغة بالحديث عن الكل ولا

شيء أو الحديث للكل وليس لأحد كما هو في ظاهرة الثرثرة. اللغة جدل وحوار، ولكنه حوار خفي، يجد الفرد فيه نفسه. لا يوجد حديث لكل الناس بل لفرد معين. والحديث عن الانسانية والعموميات والافكار أقرب إلى ديماغوجية عصر التنوير ومثاليات المفكرين الاحرار والرومانتيكيين، مثل كانط ولسفج، الذين لا يدركون حدودهم، ويتجاوزون مصيرهم، ويخلدون فناءهم. وكتاب «ثورة الجماهير» هو أشهر مؤلف لأورتيجا ضمن مؤلفات جاوزت الثلاثين. ويمكن تصنيفها جميعاً ومن خلال الترجمات الانكليزية والفرنسية الى مجموعات ثلاث يدور كل منها حول موضوع رئيسي وبصرف النظر عن ترتيبها الزماني[5].

المجموعة الأولى تدور معظمها حول الاجتماع والسياسة. وتأتي في مقدمتها «ثورة الجماهير» 1930، «الانسان والناس» 1940، «موضوع عصرنا الحديث» 1928، «الانسان والأزمة»، «اسبانيا بلا عمود فقري» 1928.

والمجموعة الثانية تدور حول الفلسفة. وتأتي في مقدمتها «ما هي الفلسفة» 1929، «نشأة الفلسفة» 1943، «بعض دروس الميتافيزيقا» 1923، «التطابق والحرية» 45/1944، «التاريخ باعتباره نسقاً» 1941، «تفسير للتاريخ الشامل»، 49/1948 «فكرة المبدأ في فلسفة ليبنتز وتطور النظرية الاستنباطية»، كانط 1930.

والمجموعة الثالثة حول الفنّ والحضارة. وفي مقدمتها «محاولات اسبانية»، «في الحب»، «القضاء على انسانية الفن» 1926، «تأملات في دون كيخوت» 1914، «ظاهريات الفن»، «فالاسكويز»، «جويا»، «رسالة الجامعة» 1931. ويمكن ايضاً تصنيف أعمال أورتيجا على مراحل ثلاث في حياته، طبقاً لتطور فلسفته. المرحلة الأولى «الموضوعية» وتشمل الكتابات قبل 1914 وهي تطابق أعماله الأدبية والفنية التي فيها حاول أورتيجا التخلص من موضوعية القرن التاسع عشر التي سادت العلوم الانسانية والاجتماعية. والمرحلة الثانية «المنظور» Perspectivisme، وتشمل الكتابات بين 1914-1923 وتضم مرحلة الفلسفة. وهي المرحلة التي تميز فيها أورتيجا بفلسفة خاصة مؤكداً فيها أن الانسان موجود ظرفي Circonstanciel أي أنه ابن ظروف عصره، وان الحياة موقف والتزام معرفي وأخلاقي. المنظور ضد المعرفة القلقة والنظريات المسبقة، وتعبير عن موقف انساني محدد. والمرحلة الثالثة «العقل الحيوي» وتشمل الكتابات بعد 1924 وتشير إلى مؤلفاته الاجتماعية والسياسية[6].

وكتاب «ثورة الجماهير» يضم خمسة عشر مقالاً تسبقها مقدمة للقارىء الفرنسي مثل مقدمة «ظاهريات الروح» لهيجل بالرغم من البون الشاسع بين العملين من ناحية البنية الفلسفية والإحكام النظري والأهمية التاريخية. وقد نشرت مادة هذه المقدمة من قبل في «اسبانيا بلا عمود فقري» عن الوحدة والتنوع في أوروبا، وتظهر فيها المركزية الأوروبية. وهي ثاني الاقسام من حيث الحجم. أما المقالات الخمسة عشر فهي على النحو الآتي:

1 ـ «واقعة التجمهر» Agglomération، ويعرض فيها أورتيجا لثنائية الجماهير والصفوة أو العامة والخاصة وهي إحدى سمات العصر.

2 ـ «الصعود إلى المستوى التاريخي»، ويعني بذلك ظهور الجماهير كمادة تاريخية وكحدث رئيسي من أحداث العصر وكمحرك لأحداث التاريخ.

3 ـ «قمة الزمان»، ويعني بذلك تعبير ظاهرة الجماهير عن روح العصر وكونها إحدى لحظات التطور في الزمان وتراكم الأحداث في التاريخ حتى لحظة الانفجار في الثورات.

4 ـ «نماء الحياة»، ويعني بذلك رؤية العصر من خلال حركة الجماهير ومن خلال العقل الحيوي مما يجعل أورتيجا قريباً من إقبال وبرجسون وباقي فلاسفة الحياة.

5 ـ «معطى إحصائي»، ويقصد به أورتيجا الواقع الاحصائي لحركة الجماهير من حيث تعداد السكان في أوروبا وأميركا خاصة كاحدى سمات العصر أو ما يسمى بالكثافة السكانية.

6 ـ «أين يبدأ الفصل بين الانسان والجماهير؟»، والقصد من هذا السؤال اثبات صعوبة الفصل بين الاثنين، فالانسان جماهيري، والجماهير لها سمات الشعور الجمعي.

7 ـ «الحياة النبيلة والحياة التافهة أو الجهد والخمول»، وهي إحدى الثنائيات التي يظهر فيها العقل الحيوي. فالحياة النبيلة والجهد لدى الصفوة والتفاهة والخمول لدى الجماهير!

8 ـ «لماذا تتدخل الجماهير في كل شيء، ولماذا لا تتدخل إلا بعنف؟ والقصد من السؤال اتهام الجماهير بممارسة العنف وكأن الصفوة لا تمارس عنفاً!

9 ـ «البدائية والتقنية»، وهي ثنائية تميز بين الفطرة والاكتساب، بين بدائية الجماهير والتحكم فيها من خلال التقنية وتحققاتها في التصنيع والانتاج.

10 ـ «البدائية والتاريخ»، وهي ثنائية أخرى تميز بين الحاضر والماضي، بين غياب الذاكرة وتراكم الخبرات. فالانسان كائن تاريخي يحمله الوعي الفردي، والجماهير عود إلى البدائية!.

11 ـ «عصر الاشباع الحسي»، والغاية منه نقد مجتمع الاستهلاك وكأن الجماهير وحدها هي التي تستهلك دون الصفوة على عكس ما تشير به الاحصائيات من نسبة استهلاك الصفوة إلى استهلاك الجماهير.

12 ـ «بربرية التخصص»، وذلك من أجل نقد روح التخصص في العلم الحديث وفقدانه للتصور الشامل حتى ضاع منه المنظور.

13 ـ «أكبر خطأ الدولة»، وذلك من أجل نقد الدولة لما تمثله من خطورة على حرية الفرد، وكأن أورتيجا يعيد ثورة باكونين وشترنر ضد هيجل دفاعاً عن الفرد ضد السلطة.

14 ـ «من الذي يقود العالم؟» وهي أطول المقالات من أجل عرض قضية قيادة العالم الآن، من الغرب أم من خارج الغرب، الصفوة أم الجماهير؟.

15 ـ «إلى أين ينتهي السؤال الحقيقي؟» وهي أشبه بخاتمة الكتاب كله لا يتضح منها غرض الكتاب ولا تكفي للإجابة على السؤال الرئيسي وكأن أورتيجا يصف الظاهرة ولا يصدر حكماً عليها.

وهكذا يبدو أن دراسة أورتيجا «ثورة الجماهير» وكما يقول هو عن نفسه هي دراسة من مثقف مستنير لا من سياسي متخصص. يقدم لوناً جديداً من ميتافيزيقا السياسة لدراسة ما وراء المشاكل السياسية. بل إن أورتيجا يرى أن مهمة المثقف ومهمة السياسي متعارضتان. مهمة المثقف توضيح المشكلة ومهمة السياسي زيادة غموضها. الثقافة السياسية تكشف الحاضر وتوضح الحقائق أما سياسة السياسيين فهي على الضد من ذلك التمويه والخداع. وهذا هو أحد معاني «ثورة الجماهير» أي عمل السياسيين الذي يفرّغ الجماعير من حياتها الداخلية.

وتدور فصول الكتاب كلها حول موضوعين رئيسيين: الانسان الجماهيري وانهيار الغرب. والظاهرتان متداخلتان لأن الأولى علامة على الثانية، والثانية إحدى نتائج الأولى. وتعني ظاهرة «الجماهير» في العصر الحاضر سيادة الأغلبية وامحاء الفردية، وظهور العقل الجمعي والرأي العام والنظم الجماعية حتى انه ليقال ان العصر الحاضر هو عصر الجماعة سواء في البحث العلمي أو في العمل السياسي. ويعني انهيار الغرب هذا الخواء الروحي الذي طالما

نبه عليه معظم الفلاسفة المعاصرين بصرف النظر عن التسمية، قلب القيم عند ماكس ستيلر، ضياع عالم الحياة Lebensweltverloss عند هوسرل، والعدمية عند نيتشه، والانهيار الحضاري الشامل عند شبنجلر.

ثانياً: الانسان الجماهيري L'Homme- Masse

الانسان الجماهيري على وجه التحديد هو أحد أفراد الجماهير أو الانسان العامي الذي سماه هايدغر «السني» من الناس Dass Mann. هو نوع من البشر يتكون تكويناً سريعاً، يتكرر باستمرار ويتشابه مع غيره، لا تاريخ له ولا رغبة له، يقبل أي نظام ويتشكل كما يُطلب منه، له كل الحقوق، ولا واجبات عليه، فارغ من تاريخه، وطيّع لكل النظم السياسية والدولية. ينقصه الداخل، وتغيب فيه الذاتية. وقد يكون اليوم نموذج العامل في الطبقة العاملة أو الفلاح في جماهير الفلاحين. هو المغلق على نفسه، لا صلة له بالآخرين، ولا يعرف الحوار، يعادي الليبرالية، ولا يمارس الحرية، ولا يختار بين البدائل. هو انسان لا معنى ولا لون ولا طعم ولا رأي له، أقرب إلى الآلة التي يحركها. هو انسان العصر الحديث الذي طالما صوره المفكرون والفنانون، هو انسان الدهماء. الانسان الجماهيري عدو للاتجاه التحرري لأنه يعلم ان التحرر عود إلى الأصالة وهو يود البقاء في مجال الزيف، التحرر تأكيد على الفردية والانسان الجماهيري غوص في الدهماء. هذا النوع من البشر موجود في المجتمعات المتطورة وفي المجتمعات النامية على حد سواء. ففي المجتمعات المتطورة حذر المفكرون من قبل من الانسان الآلة L'homme-Rabot وهو ترس في مجموعة من التروس، لا فردية له ولا كياناً مستقلاً. وهو ما يذكرنا بآراء ماركس الشاب في وضع العامل في المجتمع الصناعي وتحوله إلى شيء يساوي إنتاجه. وفي المجتمعات النامية هو أحد أفراد العامة الذي تسيّره القادة كما تشاء، تشير له فيصفّق، وتشير له ثانياً فيكف، تجمعه ليستقبل، وتدعوه ليوافق. بل ان أورتيجا يرفض الانسان أيضاً كما يصوره عصر التنوير، الانسان العام الذي يمثل الانسانية كلها أو مواطن العالم Le Citoyen du Monde لأنه انسان يتكرر، اما إذا ظهر من بين هذا الخضم إنسان فريد فإنه يكون الفرد الأوحد كما ظهر جيفارا من جماهير أميركا اللاتينية. هذه الجماهير في ثورة ولكنها أشبه بحركات الشارع وانفعالات الدهماء ومشاغبات العامة. والحقيقة، وعلى غير ما يعتقد أورتيجا، إن ثورة الجماهير الآن سواء في المجتمعات المتطورة أو في المجتمعات النامية تدل على وعي بمشاكل العصر. فقد نشبت ثورات الشباب في العالم في 1968 في المجتمعات المتطورة ضد مساوىء النظام الرأسمالي ومجتمع الاستهلاك الداعي للحروب. وفي المجتمعات النامية نشبت الثورات للتخلص من بقايا الاستعمار القديم أو من براثن الاستعمار الجديد أو من سيادة الطبقات الجديدة. فالثورة الآن ضد مظاهر الطغيان الاقتصادي في الدول المتطورة أو السياسي في الدول النامية. هي ثورة على نظم حكم الفرد المطلق وثورة الطبقات الكادحة التي لم تحصل بعد على مزايا التحرر والتحول الاشتراكي. الثورة مفهوم فلسفي، وتجربة فردية واجتماعية، وليست مجرد حركة أو انقلاب يرمي إلى تغيير الواقع. الثورة علم وليست مجرد انفعالات أو ضربات عمياء. وثورات الشعوب علامة على تقدمها وحيويتها وليس على تأخرها وسكونها.

ويعيد أورتيجا عرض القضية، الانسان الجماهيري في مقابل الفرد الحر في صورة تقابل آخر بين الاغلبية والأقلية، بين الجماهير والصفوة، بين العامة والخاصة. الجمهور هو الأغلبية في مقابل الصفوة وهي الأقلية. تعبر الاغلبية عن الانسان المتوسط أو الانسان العادي

L'homme- Moyen الذي لا يختلف عن غيره بعكس الأقلية التي تقوم على أفكار ورغبات لأنها تتطلب الكثير من نفسها لأن الأغلبية لا تتطلب من نفسها شيئاً. هذه الثنائية بين الاغلبية والاقلية وبين العامة والخاصة موجودة في كل الأديان وفي كل الملل والنحل. هي طبقية بشرية لا طبقية اجتماعية لأن العامة والخاصة موجودتان في كل طبقة اجتماعية. وبعد أن كان الخاصة هم أصحاب السلطة وكان للصفوة المختارة الحق في تسيير الجماهير أصبحت العامة الآن صاحبة الأمر. لذلك يمتاز العصر الحاضر بسيادة العامة على الخاصة وانتصار أنصاف المثقفين على المثقفين وغير المتخصصين على المتخصصين بعد أن قررت الجماهير أخذ مصيرها بأيديها واخذها مركز الصدارة الاجتماعية وتمتعها بمزايا الصفوة المختارة وحلها محلها. وهذا ما تؤكده التغيرات السياسية المعاصرة. فقد كانت النظم الديموقراطية القديمة تسمح بقدر كبير من الليبرالية، وكان باستطاعة الصفوة المختارة ان تفعل ما تشاء. والآن ظهر نوع جديد من الديموقراطيات العليا Hyper- Democratie فيها تحكم الجماهير حكماً مباشراً.

ويعيد أورتيجا صياغة نفس القضية مرة ثالثة في علاقة الفرد بالجماعة. فعلى الرغم من تركيز اورتيجا على الانسان الجماهيري كسلب إلا أنه يحلل الانسان الذاتي أو الفرد كايجاب كما فعل كيركجارد في الفرد ومونييه وستيلر في الشخص أو حتى شترنر في الفرد الأوحد. وتبدو الفردية كلما انتقلنا من الطبقة الدنيا إلى الطبقة الوسطى ثم إلى الطبقة العليا. الفردية تقود إلى الصفوة كما تؤدي الجماعية إلى الجماهير. وفي الفرد يتجلى العقل الحيوي ويختفي في الجماعة، يبدع في الصفوة ويتوارى في الجماهير، يظهر في الأقلية ويضيع في الأغلبية، وكان أورتيجا أقرب في تفسير الظواهر الاجتماعية إلى باريتو في تركيزه على دور الصفوة في القيادة، وفي نفس الوقت ينقد البلشفية والفاشية على أنها حركات جماهير مع أنها أيضاً ترى الصفوة ممثلة في قيادة فعالة نشطة، خلّاقة ومبدعة. بل انه يكون أيضاً أقرب إلى الفكر الديني الذي يركز على دور الأنبياء في التاريخ، وعلى ضرورة وجود الأقلية المؤمنة Le pétit reste والباقيات الصالحات التي بفضلها يتم انقاذ الأغلبية الكافرة وعامة الناس La foi des Simples على الرغم من غياب الدين في فكره كمحور أساسي وعلى عكس استاذه أونامونو في «احتضار المسيحية» باستثناء مواقف قليلة ينقد فيها أورتيجا - قضية الجماهير وهي في ثورتها التدين والمعرفة النظرية من أجل الممارسات السياسية وتحركات الدهماء أليس الدين أيديولوجية الجماهير كما هو واضح في لاهوت الثورة ولاهوت التحرر في أفريقيا واسيا وأميركا اللاتينية؟ ألا يتحول الدين تحولاً طبيعياً إلى العلوم الاجتماعية وهذه بدورها إلى الايديولوجيات السياسية على ما يصف جويو Guyau في لا دينية المستقبل؟ L'Irreligion de L'Avenir.

ولكن ظروف العصر تمنع أن يعيش الانسان فرديته نظراً لتضارب مشاريع الفرد مع مشاريع الجماعة. ومع ذلك فالفرد يعيش بالضرورة في جماعة، والحياة الاجتماعية تتطلب بالضرورة الاشتراك مع الآخرين في فعل الجماهير. فالجماهير شر لا بد منه! وهنا يبدو أورتيجا أقرب إلى جان بول سارتر في أن «الجحيم هو الآخر» مع أن الفرد قد يقوى بفعل الجماهير، وتتأكد فرديته وينمو مشروعه من خلال مشاركة الآخرين. وإذا اعترف أورتيجا بأن الجماهير شر لا بد منه ما دام الانسان الجماهيري لا يستطيع أن يعيش حياة فردية نظراً لتعارض مشروعه مع مشروعات الآخرين فانه أيضاً يعترف بضرورة الابقاء على حياة الجماهير ونمط سلوكها. ولكن حتى في هذه الحالة تتحول أية مشاريع مشتركة بين الفرد والجماعة مثل العدالة الاجتماعية إلى

رومانسية خطابية باسم التضامن الاجتماعي Solidarisme. ثم يبرز الديماغوجيون فيقضون على الحضارة كلها إذ ان الديماغوجية هي عدم شعور بمسؤولية الديماغوجي عن آرائه وأفكاره التي لم يبدعها هو بل تلقفها من الصفوة. الديماغوجية عند أورتيجا هي إحدى صور الانحطاط العقلي. هي شر مركب في الطبيعة الانسانية، تظهر في الانسان الجماهيري. والحقيقة ان هناك فرقاً بين الديماغوجية والثورة. الأولى تحريض للجماهير والثانية تحقيق علمي لحركاتها. ان ثورات العصر ليست مجرد تحريض ديماغوجي أو تمرد وعصيان بل هي ثورات لها أصولها التاريخية في الأوضاع الطبقية للطبقات الكادحة في البلاد النامية في هذا القرن وردود فعل على المجتمعات الصناعية المتقدمة في النظم الرأسمالية خاصة في القرن الماضي. ومهمة الحزب الشعبي أو التنظيم السياسي أو طلائع الجماهير تحويل التمرد إلى ثورة واعطاء الدور التاريخي لحركة الجماهير.

وينكر أورتيجا على الفكر الأجتماعي مفهوم المجتمع أو الجماعة. فقد خلط الفكر الحديث، في رأيه، بين المجتمع Société وبين المشاركة Association. فنحن لا نعيش في مجتمع بل في مشاركات، وهي نفس التفرقة المشهورة عند تونيس Tönnies بين المجتمع Geselschaft والجماعة Gemeinschaft. الأولى عامة مجردة لا شخصية والثانية خاصة وعينية وشخصية. كما يرفض أورتيجا نظرية العقد الاجتماعي عند اسبينوزا وروسو باعتباره اجتماع ارادات لأن المجتمع مشاركة في كيان الفرد دون تنازل عن إرادته وسلطته. وهنا يبدو أورتيجا رافضاً للتصور الاستقرائي للعقد الاجتماعي أي الصعود من ارادات الافراد إلى ارادة الجماعة مفضلاً التصور الاستنباطي أي وجود المجتمع المسبق في صورة مشاركة في بنية الفرد. الجمهور بُعد للفرد. كما أن القانون ليس تعبيراً عن إرادة جماعية بل هو تعبير عن العقل الحيوي في الأفراد. بهذه التحليلات الجديدة يحاول أورتيجا المساهمة في تقدم العلوم الاجتماعية التي تخلفت عن العلوم الطبيعية في الغرب.

وينتقل أورتيجا من علم الاجتماع إلى علم السياسة وتتحول القضية من الفرد والجماعة أو الصفوة والجماهير الى قضية الليبرالية والنظم الجماعية وفي مقدمتها الاشتراكية وبنفس التمايز والتقابل والتضاد. وقد ظهر كلا المذهبين في الوعي الاوروبي. فالليبرالية الفردية تنتمي في رأي أورتيجا إلى القرن الثامن عشر. وهي التي ألهمت الثورة الفرنسية وانتهت بنهايتها. أما الجماعية collectivisme فقد ظهرت أيضاً ابتداء من القرن الثامن عشر ثم تحولت إلى اتجاه رجعي محافظ على أيدي دي بونالد De Bonald، ودي ميستر De Maistre حتى سان سيمون Sain-Simon وبلانش Blanche وكومت Combte في القرن التاسع عشر. ثم أتى آمار Amar وتحدث عن الجمعية Collectism في مقابل الشخصانية Personalisme وجعلها ضد الفردية. وبالتالي استقر في الوعي الاوروبي هذا التعارض بين الفردية والجماعية، بين الليبرالية والاشتراكية. والحقيقة أن أورتيجا بهذا التاريخ المبتسر للفكر السياسي الاوروبي قد اغفل تطورات عديدة له ومذاهب أخرى فيه ومحاولات الجمع بين الاثنين. فقد استمر الاتجاه التحرري الليبرالي في القرن التاسع عشر عند مل J.S.Mill، وتحدث سبنسر Spencer عن الفرد باسم الجماعة. وماذا عن ماركس والمذاهب الاجتماعية التي أعطت للمذاهب الجماعية طابعاً تقدمياً، ولا يخفي أورتيجا تأييده للمذاهب الفردية ضد المذاهب الجماعية لأن الجماهير عاجزة عن أن ترتقي إلى حياة الفردية والشخصانية. يعادي أورتيجا الاتجاهات

الجماعية لأنها في رأيه تمنع الاتجاه التحرري وهو النقد الشائع الذي توجهه الرأسمالية إلى النظم الاشتراكية والذي يمكن لأجله وصف بعض فلاسفة الوجود بالرجعية والتعبير عن النظم الرأسمالية وحب الغرب. والحقيقة أن الجماهير ما زالت مسيّرة للنظام الرأسمالي في الغرب تحسب الصفوة حسابها. وكثيراً ما تنفجر الجماهير في النظم الرأسمالية فتتكيف هذه طبقاً لها وكما حدث في ثورات الشباب في العالم في مايو 1968 وكما حدث في الحركات الشعبية في النظم الرأسمالية التابعة في ايران 1979 وفي السودان 1986 والفليبين 1986 وكوريا الجنوبية 1987.

وتتميز جماهير العصر الحاضر بخصائص ثلاث:

أولاً، التجمع Agglomération أو الملأ Plein. فكل مرفق يفيض بالبشر: المنازل، والشوارع، والفنادق، والقطارات، والمركبات، والمقاهي، والمستشفيات، ودور اللهو... الخ حتى أصبحت مشكلة اليوم هي إيجاد «المكان الخالي». ولم يحدث للجماهير من قبل أن تحولت إلى مثل هذه التجمعات الكبيرة إلا في المعارك والحروب القديمة. «الجماهير» إذن لفظ من علم الاجتماع الدينامي يعبر عن الناس من حيث كونهم ظاهرة كمية مرئية. يقصد أورتيجا بواقعة التجمهر الجماعات الكمية المتراصة التي يتم التبادل بينها بلا تفرد أو خصوصية كقطع غيار آلة لا وظيفة لها إلا سير الألة ودوام حركتها.

ثانياً، الوعي التاريخي، إذ تقوم الجماهير اليوم بنفس الدور الحيوي الذي كانت تقوم به الصفوة المختارة من قبل. بل انها تتجاوز قيادة الصفوة وتعصاها. تتمتع اليوم بما كان محرماً عليها بالأمس. لقد عرف الشعب قديماً ان السيادة له ولكنه لم يعتقد ذلك إلا اليوم، ولم يحول اعتقاده إلى حقيقة فعلية إلا بسيادة الجماهير بعد تحرر الانسان العادي وشعوره بشخصيته المستقلة وخاصة أن عصر التنوير لم يحرر الا طبقة المثقفين فحسب. والآن يخشى الديموقراطيون نتيجة هذا التحرر بعد أن أصبح عبد الأمس سيد اليوم. للجندي نفس الحق الذي للقائد، وللمواطن نفس الحق الذي للحاكم، وللابن نفس الحق الذي للأب، وللطالب نفس الحق الذي للاستاذ لأن عصرنا هو عصر التسوية Nivellement، مساواة كل فرد للفرد الآخر. ويحلل أورتيجا هذه الخاصية من جانبين: الأول الدور الحيوي الذي تقوم به الجماهير، وهو الدور الذي كان حكراً على الصفوة. والثاني تمرد الجماهير على الصفوة وكرهها لها من أجل أن تحل محلها. ويمثل هذان الجانبان جدل السيد والعبد المعروف عند هيجل وفي صورة الجدل بين الصفوة والجماهير. وبعد هذا التحول، أصبح الانسان العادي محور التاريخ. يبدو ذلك في الفن وأخذ الفن الشعبي كمصدر للفنون الراقية، في الموسيقى والرسم والنحت، وكما هو واضح في الأنظمة السياسية الجديدة المعروفة باسم «الديموقراطيات الشعبية» أو «الجمهوريات الشعبية» أو «الجماهيرية الديموقراطية الشعبية». تعبر ثورة الجماهير إذن عن مدى ارتباطها بالتاريخ القديم لأن الثورة لا تقوم إلا على «العقل التاريخي». لذلك تدين أوروبا أكثر ما تدين لاثنين من مفكريها: ديكارت مؤسس الاتجاه العقلي الحديث وكوندرسيه واضع مفهوم التقدم. ثم ظلّ العقل طيلة ثلاثة قرون عقلاً رياضياً طبيعياً بيولوجياً حتى ظهر العقل التاريخي في القرن الماضي في فلسفات التاريخ والذي عبر عنه دلتاي في فلسفة تصورات العالم Weltauschaungen. هذا هو الفرق بين التاريخ الطبيعي والتاريخ الانساني. التاريخ الطبيعي لا ذاكرة له أما التاريخ الانساني فيعيش في الذاكرة، ولا يبدأ مطلقاً بداية جديدة. وقد أثبتت تجارب كوهلر Köhler أن الفرق الوحيد بين الشمبانزي والانسان هو تميز الانسان بالذاكرة. الانسان ذاكرة والحيوان

مادة على ما يقول برجسون. ويكون ثراء الانسان هو مدى استفادته من محاولات الصواب والخطأ. لذلك يعرّف نيتشه الانسان الأسمى بأنه الموجود الذي يتمتع بأطول ذاكرة. وهذا هو السبب في جعل الشعب الانجليزي قانونه قانوناً تاريخياً يكون حكم الواقعة الحاضرة في الحالة السابقة. اما الثورات المتقطّعة المنفصلة عن تاريخها (الثورة الكمالية في تركيا مثلاً) فهي ثورات مرضية أو انقلابات عسكرية أو تمرد طبقي. الثورة حركة الجماهير وليست انقطاعاً عن الماضي، تكسر خط مستمر، وقفز في مسار واحد. وهذا أيضاً ما تتميز به أوروبا بحسها التاريخي عن أميركا بلد الرخاء. فهناك قصر نظر في السياسة الاميركية وتركيز على رؤية الحاضر والواقع المباشر دون أي حس تاريخي بحركات الشعوب. ومن يتصور أن أميركا بلد المستقبل ينسى انعدام حسها التاريخي.

ثالثاً، العيش على مستوى العصر. ويدل هذا التعبير على أن الجماهير اليوم تعيش على مستوى الاحداث والمسؤولية، تعيش زمانها الحيوي وتعاني مشاكل عصرها. وهو ليس الزمان الذي تبينه عقارب الساعة أو نتائج الحائط السنوية بل هو عصرها الذهبي الذي تشعر فيه بتحققها أي أنه زمان المعاصرة. وهو تعبير مغاير لتعبير السقوط أو الانهيار لأن العيش على مستوى العصر هو العيش في سمت الزمان Le hauteur du Temps. وعلى هذا النحو تشعر الجماهير بالأحداث. وكثيراً ما يرى الناس قمة الزمان في العصر الذهبي أو العصر القديم كما هو الحال عند دعاة الكلاسيكية أو التقليديين. وهي الفترة التي يشعر فيها الناس باكتمال الزمان أو انتهائه كما حدث للمسيحيين الأوائل بظهور المسيح أو عند هيجل بتحقق المطلق. وفي هذا العصر يكون الاكتمال في الاشباع أو في النجاح أو في الوفرة. ان المعاصرة هي أن يعيش الانسان حياة عصره وأن يشعر أن حاضره أفضل من ماضيه. ومن خصائص هذا العصر أنه عصر الجماهير، ولا تُرى أحداثه إلا من خلال الجماهير. لقد صعدت الجماهير إلى مستوى التاريخ، وظهرت كمبادرة تاريخية وكأنها في موعد مع القدر. قررت أن تتقدم إلى الصفوف الأولى وتحتل مكان الصدارة وأن تستعمل طرقاً وأساليباً وأدوات متنوعة وأن تتمتع بمناهج كانت من قبل حكراً على عدد قليل. لقد ورثت الجماهير الصفوة دون أن تلغي نفسها كجماهير. عصر الجماهير هو عصر الفخامة والعظمة على ما يقول شبنجلر. وكل تفسير للعصر لا يظهر الدلالة الايجابية المختفية لسيطرة الجماهير فانه تفسير خاطىء. تبدو أصالة الجماهير في مدى ارتباطها بالتاريخ وتحملها مسؤوليته. وبالتالي فان عظمة العصر تأتي من عظمة الحاضر لا من عظمة الماضي. بل ان من سمات العصر تلك الهوة السحيقة بين الماضي والحاضر. العصر الحاضر لا يحتضر كما هو الحال عند أونامونوبل هو قمة الزمان، روح العصر، ما يُطلق عليه كل جيل زماننا، عصر ازدهار الحضارات، عصر الملأ الحيوي بصرف النظر عن الاشباع أو النجاح أو التحقق. العصر الحاضر هو عصر الثورات سواء في البلاد المتطورة أو في البلاد النامية. ومن يعيش معاصراً هو من يعيش ثائراً. ومن يؤثر الاستكانة أو النكوص عن ثورة الجماهير فانه يتخلى عن عصره ويعيش معزولاً في عصره الخاص كما يفعل كثير من علماء البلاد النامية الذين يقضون حياتهم في الخارج مؤثرين عصر التكنولوجيا واليسر على عصر ثورة الجماهير. لذلك كان الالتزام بقضايا العصر هو العمل الفلسفي الأول، والمساهمة في ثورة الجماهير هو السلوك الوحيد الممكن. بل ان وحدة الثورة العالمية اصبحت ممثلة لحركة الجماهير.

تدل هذه الخصائص الثلاث على نماء الحياة La Croissance de la Vie إذ يعيش كل فرد حياته بكامل

قواه. لا يظهر النماء في ازدياد السرعة في الزمان أو في تخطي المكان بل في محاولة الهدم والبناء المستمرة وفي النشاط الحيوي الزائد إذ يقدم العصر الحاضر في البلاد المتطورة إمكانيات واسعة للاختيار. وفي هذه الحالة يكون النماء هو شعورنا بالقدرة على الاختيار بين الممكنات التي تحتم نفسها علينا، وتكون الحياة هي العيش تحت ظروف معينة أو في العالم، وهو المعنى اللغوي للفظ عالم Mumdus أي مجموع الامكانيات الحيوية. والعالم بهذا المعنى أي مجموع امكانياتنا أوسع نطاقاً من مصيرنا وهي حياتنا الفعلية. يدل العصر الحاضر على زيادة امكانيات الحياة الانسانية في شتى الميادين الثقافية والعلمية على عكس إمكانيات الحياة البدائية. ولا تستطيع هذه الحياة الاتجاه إلى الماضي. بل ترى مصيرها في نفسها. حياتنا لا تتجه إلى الوراء بل تكشف عن نفسها وقدرها. ولما كان الانسان مقذوفاً في الزمان، والعالم موجوداً من قبل فالانسان موجود في العالم وهي إحدى المقولات الرئيسية في الفلسفة الوجودية. لا تختار الحياة عالمها بل على العكس يجد الانسان نفسه حياً في عالم محدد لا يمكن استبداله أي في هذا العالم الواقعي. عالمنا هو جزء من المصير الذي يشمل حياتنا. هذا المصير الحيوي ليس مصيراً آلياً بل هو مصير حر يتطلب اختياراً بين الممكنات. لم نُقذف في الوجود مثل طلقة بندقية تحدد مسارها من قبل بل فُرضت علينا مسارات عدة تضطرنا إلى الاختيار. ان يحيا الانسان هو أن يشعر حتماً باضطراره ممارسته حريته، يقرر ماذا يريد ان يكون في هذا العالم. ولو كنا يائسين فقد قررنا ألا نقرر. ومن الخطأ التسليم في الحياة بأن الظروف هي التي تقرر نيابة عنا بل على العكس الظروف هي التي تكون بنود المأساة التي تتجدد باستمرار والتي تدفعنا إلى أخذ موقف. شخصيتنا هي التي تقرر في الموقف. وهذا تماماً ما انتهى اليه عديد من فلاسفة الوجود المعاصرين مثل ياسبرز في «المواقف المحدِّدة» ومثل قول سارتر المشهور «ان الانسان قد حُكم عليه بالحرية»، ومثل نظرية برجسون في الجبر الذاتي، واضطرار الانسان ان يكون حراً. ان يحيا الانسان هو أن يوجد في الظرف أي في العالم. والعالم مجموع إمكانياتنا والفرد هو اختيار إحداها ثم تحقيقها. بل إن أسوأ الامكانيات هي إحدى الامكانيات. لذلك كان الموقف والقرار هما أهم عاملين في الحياة. الظرف هو مجموع الامكانيات، والقرار هو اختيار إحداها. الموقف لا يقرر بل الحرية هي التي تقرر. وهذا كله مرهون بالانسان الفرد. أما الانسان الجماهيري فانه باعتباره فرداً يحمل في طياته إمكانيات خالصة خيراً كانت أم شراً ولكنه باعتباره جماهيراً فانه ليس صاحب القرار. الجماهير لا تقرر شيئاً لأن دورها قاصر على الموافقة على حركة الأقلية التي تقدم برنامجاً يعبر عن الحياة الجماعية في النظم الديموقراطية. وفي الغالب يعيش ممثلو السلطة العامة دون برامج ويحكمون يوماً بيوم طبقاً للمنفعة العاجلة وكما تحتم الظروف تبعاً لضغط الجماهير عليهم. لذلك لا تخلق الجماهير شيئاً بالرغم من امكانياتها الواسعة. ويستطرد أورتيجا معبراً عن هذا الموقف الوجودي الذي يشترك فيه جميع فلاسفة الوجود وهو ان وجودنا في هذا العالم رسالة ومشروع، وان هذا المشروع لا يكون من المعرفة وحدها بل من السلوك أولاً، وأن المعرفة تكون ضرورية فقط بقدر ما يتطلب السلوك. أن يحيا الانسان هو أن يكون في علاقة بالعالم، وأن يصطدم بمشكلات، ويجابه أخطاراً، ويحمل مسؤوليات، كل ذلك وهو في مواقف محددة تجعله أقرب إلى التبعية أو الاستقلال. أن يحيا الانسان هو ان يشعر بمحدوديته وأن يتعامل مع المحدِّدات بحيث يتم تجاوزها والتحرر منها فيتخلق الانسان بنفسه معتمداً على نفسه دون أن يلجأ إلى أي

عـون خارجي. واذا كـان شعار الحيـاة قديمـا هـو أن يشعر الانسان بحـدوده والاعتماد عـلى ذاته فـان الحياة الآن هي أن يشعـر الانسـان بقـدرته عـلى تجاوز هـذه الحدود والاعتماد مطلقاً عـلى ذاته. ان الانسـان الممتاز يتـطلب الكثير من نفسـه. اما الانسـان العادي فـانـه يـرضى بوضعـه ويقنع بـظرفـه، ويستسلم للمـوقف. العـالم موجـود بالفعـل، والانسان مـوجود في العـالم. والسؤال الـذي وضعته الفلسفـات المثاليـة عن وجـود العالم لا معنى له لأن العالم موجود بالفعل قبل السؤال عنه. وما دام انسان هناك فالعالم جزء منه.

ويسمي أورتيجـا هذه الفـرديـة المتميـزة النبـل La Noblesse. وإذا كان النبل قديماً قـاصراً عـلى الصفوة المختارة وكان النبيـل هو من يتـطلب من نفسه الكثـير لأنـه يتمتع بـامكانيـات أكـثر ممـا يتمتـع بـه الانسـان العادي فان الانسـان العادي اليـوم يكون نبيـلاً أيضاً لأنه يتمتع بامكانيـات واسعة. «النبـل يستلزم» Nob-lesse Oblige. النبيل في اللغة هـو الانسان المعـروف في مقـابل الانسـان النكرة. ولا تتم هـذه المعرفـة عن طريق الطبقة كما هـو الحال عنـد الصفوة المختـارة بل عن طـريق العمل. النبـل هو الجهـد، والتفاهـة هي الاستكـانة. والنبـلاء حقاً هم الـذين يبـذلـون أقصى جهـدهم، وهم الصفـوة المختـارة. يتحـدد النبـل بالالتزامات وليس بالحقوق، بالعـطاء وليس بالأخـذ. النبـل هو العيش طبقـاً للقانـون عند الصفـوة، وعلى السجية عند الجمهور. وإذا كان النبل هو حياة المشقة والجهد والابداع في مقـابل حيـاة التفاهـة والاستكانـة فان أورتيجا هنا يكون أقرب الى فلاسفـة الجهد مثـل مين دى بيران Main de Biran وبـرجسون بـل وعوداً إلى فشتـة وفلسفة المقـاومـة. وإذا كنـا نعيش الآن في عصر التفاهة، تسوية كـل شيء بكل شيء فـان الفرد المتميز قادر على الخروج على هذا العصر متمثـلاً النبل في حياة الجهد وخلق الذات بالـذات، وبالتـالي يكون النبـلاء هم الفلاحـون الـذين يفلحـون الأرض وهم العمال الذين ينتجـون بأيـديهم، وهم الشهداء الـذين يبذلون حياتهم، وكل من تتصبب جباههم عرقاً. وكما قال الشاعر العربي قديماً:

ان الـفـتى مـن يـقـول هـاأنـذا
لـيس الـفـتى مـن يـقـول كـان أبي

ونـظراً لطول انغـلاق الانسان العـادي على نفسـه تنشب ثورة الجماهير في جو من العنف. تبدو الجماهـير عاصية متمردة خاصة وأنها تشعر بالكمال الـذي يؤدي الى الغـرور. ولا يـدل عـلى ذلـك غبـاء الانسـان الجماهيري بل على يقـظته. يقـوم بالثـورة دون أساس عقلي بل اعتماداً على اعتقادات وتقاليد وتجارب وحكم وأمثـال. صحيح أن الانسـان اليوم يحـاول أن يكـوّن لنفسه نظرية أو مجموعة من الأفكار عن الأشياء، وأن يعـطي إجابـات على كـل ما يعـرض له من مسـائل، ولكن الخـطورة أن تكون هـذه الأفكار خـاطئة. كـل فكـرة فشل للحقيقـة. ومن يبحث عن الأفكار تبتعـد عنـه الحقـائق. والحضـارة مـا هي إلا مجمـوعـة من القوانين والقـواعد التي تنـظم هذه الأفكـار. فإذا مـا غـابت هذه القـوانـين تحـولت الحضـارة الى بـربـريـة وعنف. ويعطي أورتيجا أمثلة على ذلك في الحـركات النقابية والفاشية دون أن يـذكر النـازية والصهيـونية، متجنياً على الحركات النقـابية التي تحـاول رفع الـظلم عن العـمال ضـد أصحـاب رؤوس الأمـوال. فعنفهـا عنف مضاد وليس عنفاً أولياً، عنف محرِّر وليس عنفـاً قـاهراً[7]، لـذلـك لا يتحـدث أورتيجـا إلا عن أحـد جوانب العنف وهو العنف المضاد ناسيـاً العنف الأول أي مصـدر العنف. ولا يميّز بـين العنف المشروع وهو العنف المضـاد والـعنـف الـلامشروع وهـو العـنف الأساسي. ويكتفي بالقـول بما تـردده أجهزة الإعـلام تسطيحاً للأمور ودفاعاً عن السلطة من أن العنف هـو عدم اعتراف بأن الآخرين عـلى حق والتأكيـد على أن الانسان وحده على حق فارضاً إرادته عـلى الآخرين.

فالآراء ليست مجرد نظريات بل هي رغبات وارادات وقوى. ويزيد العنف رفض الجماهير أساليب الحوار لأن الحوار جدل الأفكار. بذلك ينتهي النقاش، ويشتد العنف، ويبدأ العمل المباشر L'action directe. يدل العنف على افلاس العقل ويأسه. وقد كان يُسمى قديماً العقل الأخير Ultima Ratio وكما قال الشاعر العربي

السيف أصدق أنباء من الكتب
في حده الحدّ بين الجد واللعب

والحقيقة أن العنف ليس قاصراً فقط على الجماهير بل هو ممتد أيضاً إلى الصفوة. ليس فقط أحد مظاهر البدائية ولكنه أيضاً أحد مظاهر المدنية. فكلما تطورت المجتمعات وزادت رفاهية ظهر فيها العنف لإعادة توزيع الثروات ولرفض قيم مجتمع الرفاهية. هناك مجتمعات بأكملها قائمة على العنف سواء في نشأتها أو في استقرارها مثل المجتمع الأميركي في استئصاله للهنود الحمر في الداخل وقمعه للشعوب في الخارج، في استجلابه الافريقيين كعبيد في الداخل وانتشار الرجل الأبيض في الخارج. أصبح العنف في المجتمعات المتطورة أحد أنماط السلوك في الحياة اليومية كوسيلة للتعامل مع الأفراد وكدافع لحركة التصنيع وكدعوة للحرب.

ولثورة الجماهير وجهان: وجه انتصار ووجه هزيمة، وجه حياة ووجه موت. تستطيع ثورة الجماهير أن تؤدي إلى تنظيم جديد للانسانية ولكنها أيضاً تستطيع أن توقع النوع الانساني كله في كارثة. ثورة الجماهير اذن قد تسير في خطين محتملين متعارضين دون حتمية الوقوع في مسار واحد. لقد آمن فلاسفة التاريخ بالتقدم الحتمي الذي يسير في خطٍ واحد إلى الأمام مع أن التقدم قد يكون إلى الوراء أي نكوصاً. وانها لتقدمية عمياء سواء من النظم الليبرالية أو النظم الاشتراكية تلك التي ترى أن مسار التاريخ ينتهي حتماً إلى واحد منها. لا يوجد مسار حتمي للتاريخ بل توجد مجموعة من اللحظات، كل واحدة منها مستقلة عن الأخرى، لا نتحرك من مكانها. وهكذا يقترب أورتيجا من نظرة كيركجارد والبروتستانتية للتاريخ. فالتاريخ يتكوّن من مجموعة من اللحظات المستقلة التي يهبط فيها الخلود هبوطاً رأسياً ومجموع هذه اللحظات يكون هو التاريخ. ان التقدم يحتوي على عناصر فنائه في داخله. كلما تقدمت المدنية احتاجت إلى تطهير نفسها لما علق بها من ثِقل يفقدها كل حياة، فكل دافع حيوي يتوقف ويتحول إلى ثقل مادي كما يقول برجسون.

هذه التعرية المستمرة للتقدم والمدنية تدلّ على أن مصير التكنولوجيا هو البدائية Primitivisme. وقد تنبأ اينشتين من قبل بأن الحرب التالية للحرب الذرية المقبلة ستكون من جديد عود إلى حرب النبال التي كان يستعملها الانسان البدائي. إنسان اليوم إنسان بدائي أو إنسان طبيعي Naturmensch يظهر في عالم متمدين، ويظن أن المدنية هي نتاج الطبيعة مع أنها اصطناع العصر. التكنولوجيا وحدها لا تضمن شيئاً، والدولار لا يؤسس معرفة على حد قول أورتيجا وإلا «لبسنا قشرة الحضارة والروح جاهلية» كما يقول الشاعر العربي الحديث. وينطبق هذا التحليل حتماً على المجتمعات النامية التي ما زالت تتعثر في بدائيتها. لقد حاولت بعض المجتمعات النامية نقل بعض أساليب التكنولوجيا الحديثة دون تغيير أساسي في بنائها النفسي. فهناك مصانع للثلاجات في بلدٍ يشرب ثلاثة أرباعه الماء العكر، أو نافورة ماء تضيء ليلاً وترقص مياهها على أنغام الموسيقى في ميدان عام ليتبول فيها الأطفال لأن الميدان خال من دورات المياه، أو الانفاق الحديثة التي يعيش فيها الباعة المتجولون، أو ناطحات السحاب التي يسكن في ظلها من لا مأوى لهم، أو المساحات الخضراء في الشوارع

التي يربي فيها الناس الطيور أو المسارح والمدرجات التي تتجول فيها القطط والكلاب.. الخ. كل مدنية إذن مهددة بالضياع. يحرق آلالاف في أفران الغاز، وتلقى القنابل الذرية على مدن بأكملها. فالمدنية تهدد نفسها بالدمار. لقد سقطت الامبراطورية الرومانية لنقص في التكنولوجيا واليوم يسقط الانسان المعاصر بسبب تقدم التكنولوجيا. سقط الانسان القديم لأنه تخلف عن المدنية، وسقط الانسان المعاصر لأنه فاق تقدم مدنيته.

ويضرب أورتيجا المثل بالحركة الفاشية والثورة البلشفية على الوجه العادم لثورة الجماهير متناسياً كالعادة النازية والعنصرية. والواقع أن الفاشية ليست ثورة للجماهير بل حركة عنصرية تقوم على أسطورة الجنس الراقي وعلى أمجاد القدماء ومفاخر الحاضر. ويستغل دعاتها حركة الجماهير بالأسلوب الديماغوجي. أما الثورة البلشفية فالأمر مختلف إذ إنها تعتمد على حركة الجماهير دفاعاً عن مصالح الطبقات الشعبية الكادحة واستناداً إلى الوعي الطبقي للحزب. وهي ثورة تاريخية وليست مجرد حركة معاصرة. صحيح أن التاريخ كان دائماً تاريخ النبلاء والأشراف والملوك والأمراء فهم بناة القصور والكنائس، ومؤسسو الامبراطوريات، وواضعو القوانين. ولكن الشعوب الكادحة تكمن وراء ذلك كله: عمال القصور، وجنود الحروب، وفلاحو الأرض. وهي قديمة بقدم الأرض، أهملها التاريخ ولم تظهر إلا في ثورات العصر وكأنها انفجار بعد طول غياب. فإذا كانت الثورة الروسية قد انفصلت عن تاريخ روسيا القيصري فانها تعبر عن تاريخها الانساني الطويل. وان لم تستمر الحركة الفاشية اكثر من خمسة عشر عاماً، وهو العمر الذي يحدده أورتيجا للحركات المنفصلة عن تاريخها، فان الثورة البلشفية قامت منذ أكثر من نصف قرن وما زالت مستمرة.

وبطبيعة الحال عندما يتحدث أورتيجا عن العصر الحاضر فانه يقصد التجربة الاوروبية أي الغرب المعاصر. فقد أصبحت الحياة الجديدة ممكنة فيه بفضل ثلاثة عناصر: الديموقراطية الليبرالية، والتجربة العلمية وما تنتج عنها من تقنية، والتصنيع. ويبرز أورتيجا خلاصة هذه التجربة الأوروبية مبيناً كيف كانت ثورة الجماهير في العصر الحاضر رداً على التجربة الأوروبية الماضية والتي استغرقت ثلاثة قرون. وقد انتهت هذه التجربة إلى الحقائق الثلاث الآتية:

1 ـ ان الديموقراطية الليبرالية القائمة على التكنولوجيا هي أفضل أنماط الحياة.

2 ـ ان أفضل نمط للحياة الممكنة يجب المحافظة على هذين العاملين: الديموقراطية الليبرالية والتكنولوجيا.

3 ـ ان كل محاولة للرجوع إلى الوراء إلى النظم السياسية السابقة هي محاولة انتحارية. ولقد ساعد هذان العاملان: الديموقراطية الليبرالية والتكنولوجيا (مجموع الخبرة العلمية والتصنيع) الانسان العادي على تسهيل الحياة المادية له ورفع مستوى معيشته. كما أعطياه قسطاً وافراً من الراحة حتى أصبح العصر الحاضر خالياً من كل عقبات مادية. كما سهلتا له حياته المدنية والاخلاقية. واذا كان القرن التاسع عشر عصر الثورات فان الثورة ليست تمرداً بل وضع نظام جديد محل النظام القديم. وبذلك يمتاز الانسان المعاصر بالتوسع في رغباته الحيوية، وفي نفس الوقت بعدم رضاه عما يسهل له حياته. وهذان هما العاملان النفسيان اللذان يحددان سلوك الطفل المدلل الذي لا يشبع مهما استجيب إلى طلباته والذي يعتبر كل ما يحصل عليه حقاً مكتسباً. كذلك الوعي الاوروبي يشعر بأن ما وصلت اليه القرون الماضية خاصة القرن الماضي انما أصبح حقاً طبيعياً مكتسباً له. ان ما يشغل

الجماهير الان هو رخاؤها. ولكنها في نفس الوقت تثور لطلب الخبز فتحطم المخابز، تثور على المدنية التي تنعم بها فيصيح هيجل «الجماهير تتقدم»، ويعلن أوجست كونت «عصرنا عصر ثوري تتولد عنه الكوارث»، ويصرخ نيتشه «أرى مد العدمية يقترب». ومع ذلك يتميز العصر الحاضر بسهولة الحياة المادية، يقضي فيه الفرد حاجياته، ويرضى عن نفسه. انه عصر اشباع الحواس، عصر التخمة، يفرض ارادته بالعمل المباشر. ومن هنا أتت نغمة الانتصار. تبدو له حياته العقلية والخلقية مرضية تماماً. هذا الرضا عن النفس يجعل الانسان المعاصر أصماً عن كل ما يقال له فلا يملك الا ان يفرض ارادته بالعمل المباشر. ان هذه الوفرة لا تسمح له بان يعيش حياته لان الحياة صراع الانسان من أجل البقاء ومحاولته ان يكون ذاته. اما انسان العصر التعايش الذي يريد راحة بدنه واشباع رغباته وسكينة نفسه فهو من بقايا الارستقراطية الوراثية. انه عصر عبادة الجسد (وكما هو واضح في الافلام، والاعتناء بالمظهر، وغياب الرومانسية في العلاقة مع الجنس الآخر). يتحدث أورتيجا عن العصر في مجتمع الاستهلاك الذي يشبع كل فرد فيه رغباته والذي يفيض فيه الانتاج عن حاجاته. وهو العصر الذي لم تعشه بعد المجتمعات النامية التي تهدد المجاعة بعض شعوبها وسوء التغذية البعض الآخر. بل ان هذه الموجة من التسهيلات التي تعم المجتمعات المتطورة أثارت جيلاً من الشباب الغاضب فاجتاحت ثورة الغضب كثيراً من الأعمال الأدبية والفنية، وأنشأت حضارة مضادة Counter-Culture في مواجهة حضارة العصر السائدة. إن المجتمعات المتطورة شعرت أخيراً بالوجه الآخر للعملة وهو فقدان الاحساس بالحياة امام التسهيلات الجمة وتحويل الانسان الى عبد للآلة بعد أن كانت الآلة عبداً للانسان. وما وصلت اليه المجتمعات المتطورة وشعرت بأوجه نقصه هو ما تحاول المجتمعات النامية الحصول عليه الآن وكأن التاريخ يعيد نفسه ولكن بصورة أخرى لأن المجتمعات المتطورة تستهلك ما تنتجه في حين ان المجتمعات النامية تستهلك ما ينتجه غيرها. واذا كانت المجتمعات المتطورة قد خسرت الآخرة فقط فان المجتمعات النامية قد خسرت الدنيا والآخرة.

وقد امتازت التكنولوجيا الاوروبية على التكنولوجيا البدائية بأنها قائمة على العلم. لذلك أفسحت المجال للتقدم بلا حدود. لم تعد الجماهير من الطبقة العاملة وحدها بل تعدتها الى طبقات التكنوقراط والعلماء. فاذا فرضت البرجوازية القائمة أو الناشئة روحها على العصر فان التكنوقراط يكوّنون جماعة داخل البرجوازية ويفرضون عليها روحهم. والعالم على رأس جماعة التكنوقراط ولكنه يقع في التخصص ويصبح تكنوقراطياً متخصصاً لا عالماً مفكراً. وتصبح سمة التخصص هي سمة العصر الحاضر. وهو ما يعارض روح القرن الثامن عشر عند فلاسفة التنوير ومثلهم الأعلى في المعرفة الشاملة التي حاول فلاسفة دائرة المعارف تنسيقها، يؤدي التخصص الى تضييق مجال الرؤية والى الخلط بين الاستقصاء والفحص وجمع المعلومات من ناحية وبين روح العلم والابداع العلمي من ناحية أخرى. فمجرد جمع المعلومات والتعامل معها بالعمليات الرياضية ليس علماً بل العلم هو موقف الانسان من الطبيعة وعمل العقل في ظواهرها. كان الناس قديماً إما علماء أو جهالاً. واليوم هناك وسط بينهما وهم المتخصصون الذين هم علماء نظراً وجهلة عملاً، والذين يسلكون في الحياة العامة وكأنهم جهال. لقد ساعد التخصص العلوم التجريبية على تقدمها في القرن الماضي ولكنه اليوم عاجز عن أن يعطيها دفعات أخرى إلى الامام. وهنا يتفق أورتيجا مع برجسون في رفضه للتخصص وفي

دعوته إلى المعرفة الشاملة. التخصص هو سبب أزمة علم النفس في النصف الأول من هذا القرن وكذلك سبب الخلط في العلوم الانسانية. وإذا كانت دعوة أورتيجا وبرجسون دعوة شرعية في المجتمعات التكنولوجية فانها لا تصدق على المجتمعات النامية التي تعاني من روح الشمول ونقص التخصص، ووضع كل شيء في كل شيء.

وكما أن العلم مهدد بالتخصص فكذلك الحياة مهددة بالدولة. لم تكن للدولة في القرن الثامن عشر الاوروبي أهمية تُذكر، ثم بدأت الرأسمالية ومؤسساتها الصناعية القائمة على التكنولوجيا الجديدة في توسيع نشاطها. فظهرت طبقة اجتماعية جديدة وهي البرجوازية التي كان لديها من القدرات العلمية والعملية ما ساعدها على القيام بدور المنظم حتى ان الدولة نفسها كانت تدور في فلكها. لم تكن الدولة حينئذ الا جنوداً وبيروقراطيين وثروة خلّفها نبلاء العصر الوسيط وكانت هذه الطريقة قد انتهت لأنها كانت ذات عقل محدود. وكانت تسلك طبقاً لغرائزها وعواطفها وانفعالاتها. وكان العامل اللاعقلي هو السائد. لذلك لم تستطع تطوير التكنولوجيا التي تقوم على التنظيم. ونظراً لوجود هذه الهوة الشاسعة بين ضعف الدولة وقوة الطبقات الاجتماعية استولت البرجوازية على السلطة. وبدأ المد الثاني للبرجوازية في القرن التاسع عشر، ونشأت دول قوية، وانتهى عصر الثورات نتيجة لاتحاد سلطة الطبقة الاجتماعية مع سلطة الدولة، ولم يبق الا الانقلاب. أصبحت الدولة جهازاً ضخماً يسيّر كل شيء، تُعجب بها الجماهير وتنسى أنها نتاجاً انسانياً فتنجرف داخلها. ان أخطر ما يهدد المدنية اليوم هو «تدويل الحياة» L'Etatisation de la vie والقضاء على تلقائية الافراد وحركة الجماهير. يسود العقم، ويعيش المجتمع للدولة، والفرد لجهاز الحكم. تعم البيروقراطية حتى تبتلع جهاز الدولة والجيش، وتصبح الجماهير مجرد مادة لتغذية جهاز الدولة كما هو الحال في النظام الفاشي وشعاره «كل شيء للدولة، ولا يوجد شيء خارج الدولة، ولا يوجد شيء ضد الدولة». تظهر قوة البوليس وتتضخم أجهزة المخابرات، وتصبح الدولة التي خلقها الفرد أخطبوطاً تمتد اطرافه في كل مكان وكأنها عين الله الساهرة. لقد كانت الدولة في القرن التاسع عشر الاوروبي خاصة عند هيجل أمل الجماهير حتى انه اعتبرها الحقيقة نفسها مجسمة على الارض والمطلق نفسه بعد ان تحقق في التاريخ، والله نفسه بعد أن انتقل من ملكوت السموات إلى ملكوت الأرض. ولكنها اليوم تخلت عن مهمتها، وعادت الجماهير التي دعتها من قبل. وينطبق وصف أورتيجا على الدولة في العصر الحاضر سواء في النظم الاشتراكية أو في النظم الرأسمالية أو في أنظمة الحكم في البلاد النامية. فكثيراً ما تعادي الدولة في النظم الجماعية حرية بعض الأفراد رعاية لمصلحة الجماهير. ودائماً ما ترعى الدولة في النظم الرأسمالية مصالح الطبقات المستغلة ضد مصالح الجماهير. وفي بعض الاحيان تجمع بعض أنظمة الحكم في البلاد النامية في دكتاتورية الطبقة الجديدة والحكم لصالحها بين عيوب الانظمة الجماعية والانظمة الفردية على السواء. وكما يبدو ذلك في عسكرة المجتمع أو في قول الرئيس «الدولة هي أنا». ومن ثم يكون أورتيجا أشبه بباكونين Bakunin الثائر على دولة هيجل وبروليتاريا ماركس على حد سواء رافضاً ولاء الفرد لأية سلطة خارجة عنه سواء كانت سلطة الدولة أو سلطة الطبقة ودون أن يصل إلى حد الفوضوية كما هو الحال عند شترنر وبرودون وكروبتكين Kropotkin في القرن الماضي، أو جولدمان Emma Goldman في هذا القرن.

ثالثاً: انهيار الغرب

واذا كنا نعيش في عصر الجماهير فاننا ايضاً نعيش

في عصر انهيار الغرب، فاذا كانت ظاهرة ثورة الجماهير سلبية فإن ظاهرة انهيار الغرب أيضاً سلبية ويكون الجدل بين الظاهرتين جدلاً بين سالبين أو لا جدل. اما اذا كانت ظاهرة ثورة الجماهير ايجابية فان الجدل يكون بين الايجاب والسلب، وهو الأقل احتمالاً. ومما يدل على ذلك انه يستحيل ان تتعاصر ظاهرتان متناقضتان إحداهما نفي للأخرى. فاذا كانت فكرة انهيار الغرب لا خلاف عليها فان ظاهرة الجماهير تكون أيضاً سلبية وإلا وجد الغرب بعثاً له في حيوية الجماهير ودورها في العصر.

يحاول أورتيجا التعرف على سمات العصر الحاضر للتحقق من صدق هذه القضية. انهيار الغرب تلك التي أعلنها شبنجلر صراحة في كتابه المشهور «أفول الغرب» والتي لمسها معظم مفكري العصر، هوسرل، وشيلر، ونيتشه، وبرجسون، وتوينبي، وسولوفييف على عكس ما قيل في القرن الماضي من بلوغ الذروة والكمال عند هيجل أو ماركس. ومظاهر هذا الانهيار عديدة مثل الضياع، والمدنية الزائفة، وغياب المسؤولية، وضعف الروح المعنوية، وفقدان الحياء، وقلب القيم، وضياع الاخلاق... الخ. يشعر العصر الحاضر شعوراً خرافياً بالقدرة على التحقق ولكنه لا يدري ماذا يحقق. يسيطر على كل شيء ولكنه لا يسيطر على نفسه. يشعر بأنه مفقود ضائع في وفرته التي ابتدعها. يحاول أورتيجا أن يدرس موقف الاوروبي العادي أمام ظاهرة انهيار الغرب أي قياس قدرة الانسان العادي على استمرار المدنية الحديثة ودرجة التحامه بالحضارة. ويتساءل عن المدنية والحضارة والعلم والديموقراطية الليبرالية وكل ما أبدعه الغرب من تنظيمات. فإذا كان العالم مجموعة من الامكانيات تتجدد باستمرار، اليوم أفضل من الأمس، والغد أفضل من اليوم، فماذا يعني انهيار الغرب اذن مع زيادة امكانياته وتجددها؟ هل الانهيار في الحضارة أو في التنظيمات السياسية، في الروح أم في تجلياتها المدنية؟ وإلى أي حد يجوز هذا التعميم؟ ان الانهيار لا يكون الا في نقص الحيوية، وهذا لا وجود له. ولكل عصر قدرة على الحيوية لا يجوز قياسها على قدرة عصر آخر. ان العصر الحاضر عصر اكتمال وامتلاء بل عصر غرور وخيلاء لأنه يعتبر نفسه أفضل من أي عصر مضى، ومع ذلك يشعر بالفقر في وفرته، وبالضياع في وجوده، وبالشقاء في نعيمه، ويسير نحو المنحدر. وإذا كان كل شيء ممكناً فالشر ممكن كذلك بما في ذلك النكوص والسقوط والبربرية. وقد غابت عن أوروبا المسؤولية العقلية للمثقفين وذلك لارتباط الثقافة بالنظام الرأسمالي ولأن المثقفين أوروبيون أولاً ومثقفون ثانياً. كما تعاني أوروبا اليوم من انخفاض الروح المعنوية حتى أصبحت بلا أخلاق أو قيم أو مثل أو معايير عامة للسلوك. قتلتها النسبية، واحتواها الشك بعد أن جربت كل شيء، وتكافأت الأدلة، واصبح كل شيء حقاً وباطلاً في آن واحد، صواباً وخطأ في نفس الوقت. المشكلة اذن أن أوروبا بلا أخلاق، والعصر الآن عصر الادعاءات الكاذبة Chantage تستعملها الحكومات لتسكين الشعوب. لا تعني الاخلاق هنا القيم الحسنة والمبادىء القوية ولكن تعني المثل والغايات وتحقيق الرسالات العالمية. وقد لاحظ الاوروبيون انفسهم ظاهرة السقوط وتصوروا أنها أزمة التنظيمات السياسية دون الذهاب إلى ما وراء هذه الازمة في الوعي الاوروبي نفسه. وكان دافعهم على ذلك أن أول ما يندرج تحت هذه الظاهرة هو مجموعة الصعوبات الاقتصادية التي تقابل كل شعب والتي لا تؤثر عادة في امكانياته على الخلق. ولكن يظهر السقوط في نمط الحياة العامة التي تتحقق فيها القدرات الاقتصادية أو في عدم التناسب بين القدرات الحالية والتنظيمات السياسية. قد تكون الأزمة في حصر القوميات، كل

داخل حدودها لأن أورتيجا لم يشهد عصر الشركات المتعددة الجنسيات التي تتجاوز حدود القوميات والتي ظهرت منذ السبعينات. وقد تكون أزمة السياسة الداخلية وإفلاس المؤسسات الديموقراطية وبرامجها مثل: عدم فاعلية المجالس النيابية، عدم تعرضها للموضوعات تعرضاً سليماً. إلا أن السبب المباشر للسقوط هو أن الفرنسي أو الألماني يشعر بأنه العالم كله، ويصوغ المصلحة العامة في اطار المصلحة القومية بالرغم من المناداة بالوحدة الاوروبية أو بما تم بعد ذلك باسم السوق الاوروبية المشتركة. والحقيقة انه لا يمكن اصلاح نظام بال لا يسمح بالتطور نظراً للحس القومي الدفين في كل شعب أوروبي وعدم قدرة الشعور القومي على تجاوز حدود القومية الى مستوى العالمية. وأشهر مثل على ذلك صناعة السيارات الاوروبية امام صناعة السيارات الاميركية او ميل أوروبا إلى تحقيق الوحدة بين قومياتها المختلفة مصطدمة بالروح القومية. ولم يعش أورتيجا ليرى أمثلة أخرى من صناعة السيارات اليابانية والحاسبات الآلية اليابانية تغزو مثيلاتها الغربية والاميركية.

وبصرف النظر عن مدى دقة تحليلات أورتيجا لوصف مظاهر الانهيار فانه يشارك معظم الفلاسفة المعاصرين في التنبيه على نفس الظاهرة وان اختلفت أوجه تعبيرها. فأورتيجا مثل برجسون يعيب على العصر الحاضر غياب «الروح» والالتصاق بالواقع المادي حتى أصبح مجال الرؤية محدوداً للغاية. وهو النقد الشائع الذي يُوجّه عادة إلى المادية الاوروبية. والمقصود بالروح هنا ليس الموجودات المتعالية أو المفارقة على حد تعبير العصر الوسيط إلا من حيث دلالتها على العموم والشمول والقدرة على تجاوز الحدود والتناهي. كما أن المقصود ليس هو غياب الاخلاقيات بالمعنى الساذج بل غياب نسق للقيم عام وشامل لا يتحدد بحدود الطبقات الاجتماعية أو الحدود القومية. انما المقصود عادة هو المعنى الفينومينولوجي أي غياب عالم الحياة Lebenwelt أو التجربة الحقة Erlebeniss. لقد كان كثير من الفلاسفة المعاصرين أكثر وضوحاً وتعبيراً من أورتيجا في وصف ظاهرة الانهيار. فهي انهيار حضاري شامل ونهاية فترة في تاريخ العالم عند شبنجلر، وهي عدمية مطلقة وضياع كل شيء عند نيتشه، وهي الان تخلق آلهة عند برجسون، وهي قلب مطلق؛ قلب كل شيء رأساً على عقب عند شيلر، وهي احتضار للروح عند أونامونو. . . الخ.

ويحاول أورتيجا تجاوز هذه العموميات ويضع بنية للشعور الأوروبي وتطوراً له[8]، فالوعي الاوروبي له صورتان: سلمية ونضالية. من الأولى يأتي السلاح ومن الثانية تندلع الحرب. ولكن أورتيجا لا يفصل في البنية أكثر من ذلك ولا يحدد اتجاهات الوعي الاوروبي نحو الطبيعة ونحو التعالي ونحو الانسان. مع أن هوسرل كان قد كتب رائعته عن «محنة العلوم الأدبية» سنة 1935مفصلاً بنية الشعور الاوروبي وواصفاً لمساره. ولكن أورتيجا يعطي تفصيلات أكثر عن تطور الشعور الأوروبي منذ أصوله الأولى عند اليونان والرومان حتى تطوره الأخير ووصوله إلى مرحلة الانهيار في ثورة الجماهير التي يعتبرها أحد مظاهر السقوط باعتبارها انهياراً معنوياً للانسانية كلها. ويضع أورتيجا تقابلاً بين الوعي الاوروبي الدينامي الحركي وبين الوعي اليوناني الروماني الثابت الساكن. فلم يكن سهلاً على الفكر اليوناني الروماني ادراك الواقع باعتباره حركة فتصور الطبيعة ثابتة، والله محركاً لا يتحرك، والانسان قوى متناسقة. اما الدينامية الاوروبية فانها ترجع في الحقيقة إلى عصر النهضة ورفض كل مصدر للقوى الطبيعية خارج العالم، ورفض كل تصور للعالم لا يصدر عن الانسان نفسه برؤيته للاشياء وتعقله لها. لذلك أصبحت قوة

العالم منه واليه. ويعتبر أورتيجا مثل هوسرل وديكارت بداية الوعي الاوروبي في مساره الحديث. استمر العقل الديكارتي ثلاثة قرون، وهو عقل رياضي طبيعي بيولوجي مما جعل الوعي الاوروبي في البداية وعياً عقلياً يصعب فيه الفصل بين العقل والوعي، وهذا ما يقوله هوسرل وڤيبر M.Weber عن قدرة الوعي الاوروبي على التنظير وتصور الواقع تصوراً عقلياً رياضياً صرفاً حتى أخرج هوسرل كل حضارات الشرق القديم من حسابه في تطور التاريخ لارتباطها بالدين والاساطير والتكيف مع الحياة. وقد كان افلاطون وسقراط اكثر فلاسفة اليونان تأثراً بالشرق في الاشراقيات الدينية عند افلاطون والاخلاقيات العملية عند سقراط. يبدأ تاريخ العلوم الاوروبية بنقطة أرشميدس. ويجعل فيبر سيادة العامل العقلي السبب المباشر في تفوق الجنس الاوروبي وعلى ظهور البروتستانتية كفكر عقلاني حر ولّد الرأسمالية من براثن الكاثوليكية الرومانية التي كانت ركيزة الاقطاع[9]. وقد تميز القرن الخامس عشر بنهضة الآداب تحت أثر العلم والعقل. ومنذ القرن السابع عشر والوعي الأوروبي يعيش تجربة مشتركة. ثم ظهرت انسانية الوعي الاوروبي في فلسفة التنوير في القرن الثامن عشر حيث ان الحصول على دساتير مماثلة حق طبيعي لكل الشعوب. وبصرف النظر عن مدى دقة هذا الوصف لتاريخ الوعي الاوروبي فان ما يبقى هو هذا الدافع نحو التقدم منذ بدايات عصر النهضة والبحث عن الحقيقة بعد ان تم اسقاط الاغطية النظرية القديمة حتى أصبح هذا البحث مرادفاً للحقيقة نفسها على ما يقول لسنج[10]. يكشف تاريخ الوعي الاوروبي عن قدرته على التحرر من الماضي ثم وضع بدائل متعددة بدلاً من الاختيارات القديمة. وقد لاحظ جيزو Guizot من قبل أنه لم تنتصر أية جماعة أو أي مبدأ أو أية فكرة أو أية طبقة اجتماعية على نحو مطلق، ولم تحسم المعركة لصالح أحد في الوعي الاوروبي. وهذا هو السبب في أنه في تطور دائم وفي تقدم مستمر. إنما قد يخف الدفاع، ويبطؤ المسار حتى ينتهي الى التوقف التام بعد الانتهاء إلى الحيرة والشك وتكافؤ الأدلة وعدم الاستقرار والتطرف وأحادية النظرة والتجزئة.

ويركز أورتيجا على موضوع الوحدة والتنوع في الوعي الاوروبي متسائلاً: جعل الشعور الاوروبي وحدة متجانسة أم شتات من قوميات متعددة؟ يرى أورتيجا أن الشعور الأوروبي حقيقة متجانسة مهما اختلفت الظروف التي تكتنف بوحداته الصغرى كما تبدو في القوميات. الشعور الاوروبي حقيقة واقعة أو ظاهرة ملموسة تتميز بخصائص فريدة أهمها التنوع في الوحدة والوحدة في التنوع، وذلك كوحدة الدين المسيحي وتنوع نظام الكنائس، ووحدة الامبراطورية الرومانية وتعدد شعوبها وكوحدة العقل الخالص وتنوع الانساق الرياضية، ووحدة الفلسفة وتعدد مذاهبها، ووحدة شعوب امريكا اللاتينية بالرغم من تعدد لهجاتها. ووحدة الشرق وتنوع الدول الشرقية، وهذا ما لم تدركه فلسفة التنوير التي تصورت العالم كله انسانية واحدة، متجانسة عاقلة، حرة ومستقلة. ولم تستطع الحروب الطاحنة بين الشعوب الأوروبية النيل من وحدتها وتجانسها. فلكل شعب أوروبي خاصيتان: الأولى عبقريته الخاصة المتمايزة عن عبقرية الشعب الآخر، والثانية اشتراكه في خصائص عامة تجمعه مع باقي الشعوب. فأوروبا أمة Nation مكونة من عدة شعوب peuples على ما لاحظ مونتسكيو من قبل. الوحدة المتجانسة مصدر قوة وباعث حركة والتنوع والتعدد مصدر خلق وابداع وتخصص وتفرد. أوروبا حقيقة اجتماعية أولاً قبل أن تكون حقيقة تاريخية أي مجموعة من العادات والنظم والتقاليد تكوّن مجتمعاً واحداً دون أن يكون بالضرورة مترابطاً

اجتماعياً. المجتمع موجود طبيعي أما الترابط الاجتماعي فاصطناعي بناء على عقد ارادي. ولا يوجد الترابط الاجتماعي قبل أن يوجد المجتمع المترابط. القانون نتاج طبيعي للمجتمع وليس سابقاً عليه. فأورتيجا من أنصار الحق الطبيعي مثل هيجل لا من أنصار العقد الاجتماعي عند اسبينوزا وروسو. يتكون المجتمع الاوروبي من دول، وكل دولة ممثلة في سلطة تعبر عن الرأي العام. هناك رأي عام أوروبي وان لم توجد دولة أوروبية. قد تكون الدول الاوروبية المتحدة محض خيال ولكن وحدة المجتمع الاوروبي موجودة بالفعل كما هو الحال في الأمة الاسلامية التي تجمع وجدانياً وفكرياً وعقائدياً وتنظيمياً وتشريعاً الدول الاسلامية. ويقول أورتيجا انه بالرغم من أنه قاوم المثالية طيلة حياته وكرهها الا أن الواقعية التاريخية تثبت ان وحدة أوروبا ليست مثالاً بل واقعة قديمة جداً في الحياة اليومية مثل ضفائر الصيني عندما تطل من وراء الاورال أو «المجمع» الاسلامي! ان الدولة الاوروبية التي تتجاوز حدود الاوطان هو تصور يرجع إلى طريقة الادراك اليوناني الروماني التي لا تستطيع أن ترى الا الوقائع الثابتة لا الوقائع المتحركة. أما التصور الاوروبي فان الاشياء فيه قوى كامنة تكشفها وتكوّن حقيقتها. والسلطة العامة الاوروبية قوة حركية تحكمها قوانين الميكانيكا وأهمها قانون توازن القوى. وبهذا المعنى تكون هناك وحدة أوروبية سلطتها العامة ميزان تعادل القوى والذي يرجع الفضل من وجوده إلى هذه الخاصية، الوحدة والتنوع في الوعي الاوروبي. وما قاله اورتيجا عن أوروبا كميزان للقوى قاله فشتة من قبل على المانيا كتوازن للقوى بين شرق أوروبا وغربها بوجه خاص وبين الشرق والغرب بوجه عام.

ويكثر أورتيجا من الحديث عن أوروبا والغرب كمرادفين ولو أن الحديث عن أوروبا أكثر من الحديث عن الغرب. وان كانت المجلة التي أسسها عنوانها «مجلة الغرب» ويشعر بأوروبيته شعوره باسبانيته ان لم يكن أكثر. ويتضح ذلك صراحة في كثرة استعماله لألفاظ مثل فلسفتنا، عصرنا، جيلنا، حضارتنا، تاريخنا... الخ. هناك شعوب أوروبية واخلاق أوروبية، وأعراف أوروبية، وعلم أوروبي، وقانون أوروبي... الخ. وفي داخل أوروبا يكثر من الحديث عن فرنسا وانجلترا والمانيا واسبانيا. ويشخص كل دولة أوروبية في ثقافتها ثم يشخص ثقافتها في أهم علم فيها جسد روحها وعبر عن شخصيتها، هوجو في فرنسا، وشكسبير في انجلترا وجوته في المانيا، وسرفنتس في اسبانيا، والانسانية جمعاء في بلاد ما بين النهرين! وهنا تبدو سخرية أورتيجا من النظريات العامة والمثاليات غير الشخصية والتي يصفها بالديماغوجية.

ويبدو ان اورتيجا قد وقع ضحية المركزية الاوروبية Eurocentrisme. ففي «ثورة الجماهير» تترد الفاظ أوروبا، وأوروبي، والغرب واسبانيا وفرنسا وانجلترا وأمريكا وروما واليونان عشرات المرات[1]. اوروبا مركز الصدارة ومحور تاريخ الشعوب. ويستشهد أورتيجا بالمؤرخ الفرنسي Guizot الذي يضع الحضارة الاوروبية في كفة وباقي حضارات العالم في كفة أخرى. فالحضارة الأوروبية استطاعت منذ خمسة قرون، ابتداء من عصر النهضة حتى الآن اعادة بناء التفكير الانساني من جديد وتأسيس قواعد التفكير العلمي وما نتج عن ذلك من تطبيقات عملية أفادت الانسانية جمعاء. وينسى أورتيجا ان اوروبا في عصورها الحديثة انما استفادت من تراكم خبرات طويلة من حضارات الشرق القديم في الهند والصين وفارس ومصر ومن خلال الحضارة الاسلامية وترجمات علومها عبر اسبانيا وايطاليا وتركيا. وان مؤامرة الصمت التي يضربها الوعي الاوروبي على

مصادره القصد منها الايهام بالعبقرية الخاصة وبالنموذج الذي على غير منوال كأحد مكونات العنصرية وهي الداء الدفين فيه. وفي نفس الوقت يطبق الوعي الاوروبي نهج الأثر الثائر ويكشف عن المصادر التاريخية للثقافات غير الاوروبية حتى يقضي على ابداعاتها ومساهمتها الاصيلة في تاريخ الثقافة الانسانية. هذه الازدواجية والمعيار المزدوج والكيل بمكياليه هي إحدى خصائص الوعي الاوروبي. فالانسانية لديه انسانيتان، والمبادىء لديه نوعان، واحد لأوروبا وآخر لغير أوروبا!

وقد يكون أحد مظاهر الانهيار هو تحول قيادة العالم من أوروبا إلى خارجها. ويعطي أورتيجا لسؤال: من الذي يقود العالم اليوم؟ أهمية بالغة ومكانة بارزة في «ثورة الجماهير» إذ إن من أهم خصائص العصر انتقال السلطة الذي يدل أيضاً على تحول في الروح. فمن الذي يقود العالم اليوم؟ أو بتعبيرنا لمن الحكم اليوم؟ منذ القرن السادس عشر قادت أوروبا الانسانية إبان ما نسميه بالعصور الحديثة كما قادت روما من قبل منذ أوائل العصر الوسيط. ولا تعني هنا القيادة المادية القائمة على القوة. فهناك فرق بين العدوان والقيادة، قد يعتدي أحد دون أن يقود، وقد يقود أحد دون أن يعتدي. القيادة هي الممارسة الشرعية للسلطة القائمة على الرأي العام وهو اليوم القوة الموجهة للقيادات. وقد قال تاليران من قبل لنابليون «سيدي، ان العصى تستطيع ان تفعل كل شيء سوى الجلوس فوقها». فالقيادة لا تعني الاستيلاء على السلطة بل ممارستها في هدوء ووعي. ومع انه في المجتمعات الحالية يصعب وجود رأي عام موحد اذ ينقسم المجتمع إلى فئات، ولكل فئة رأي فإن السلطة تأتي لتحل محل جميع الآراء. ولكن لا يمكنها القيادة ضد مجموع الرأي العام لأن القيادة هي سيادة فكرة أي القيادة الروحية كما مثلتها الكنيسة من قبل. ولكن كيف تأتي الفكرة ومعظم الناس في عصر الجماهير لا أفكار لهم؟ اذن تأتي الفكرة من الخارج وهذا بالضبط هو معنى تحول قيادة العالم من أوروبا الى خارجها. منذ الحرب العالمية الثانية ويُقال ان أوروبا لم تعد قائدة للانسانية. لقد قادت طيلة ثلاثة قرون ولكنها لا تستطيع اليوم أن تقود. بدأت نفسها تشك في قيادتها كما بدأ الآخرون يشكون في قيادتها لهم. وهذا هو ما عناه شبنجلر بأفول الغرب. وما قصده آخرون بسقوطه. لقد بدأت الاتجاهات الوطنية داخل أوروبا وخارجها رفض قيادتها، وعمت الثورات سائر الشعوب التي تمت السيطرة عليها إبان قيادة أوروبا، وبعد سيادة الجماهير ورفضها أي مظهر من مظاهر السلطة بل واستردادها حق السلطة لنفسها. واذا كانت الجماهير دون برنامج حياة حتى على الرغم من ظهور أجيال جديدة فمن الذي سيحل محل أوروبا في القيادة؟ اذا كان المعنى الاشتقاقي للقيادة هو القيام بمهمة، فالقائد هو الذي يقوم بمهمة، فإنه دون القيادة يكون الفراغ. فالحياة هي القيام بشيء وأداء شيء. ان أوروبا اليوم لا تستطيع تكليف الشعوب الأخرى بالقيام بالمهام نيابة عنها. وان انتصار الماركسية في بلد غير صناعي لا يدل على انتصار لأن الشعب يظل يعيش في تاريخه القديم. وأمريكا لا تقود بل الذي يقود فيها هو التكنولوجيا. وماركس والتكنولوجيا خرجا من أوروبا، وهي بدائل أوروبية تحمل نفس الغناء الذي تحمله اوروبا. وإذا كانت السلطة مغتصبة في دولة ـ كما هو الحال في اسبانيا ـ فان هذه الدولة لا يمكن ان تقود. لم تعد هناك بدائل داخل أوروبا لنهاية أوروبا لقيادة العالم، وهذا هو السبب في أن أوروبا تسير في مكانها لا تتحرك.

وهنا يأتي دور العالم الثالث وما يمثله من وعي جديد لشعوب القارات الثلاث والتي تكون أكثر من ثلاثة أرباع سكان العالم. ولقد بدأ المفكرون في العالم

الثالث من قبل دراسة الوعي الاوروبي كظاهرة مستقلة، فاصبح المدروس هو الدارس، والملاحَظ هو الملاحِظ، والموضوع هو الذات، طبقاً لتبادل الادوار بين السيد والعبد. لقد استطاع العالم الثالث تحقيق انجاز ضخم في هذا القرن ألا وهو التحرر من الاستعمار، واستطاع تكوين رأي عام جديد مناهض للعنصرية وللتفاوت بين الاغنياء والفقراء، وللتسلح النووي وللحرب الباردة، مقاوماً الدخول في الاحلاف العسكرية وحالا محل أوروبا كميزان للثقل في العالم بين الشرق والغرب فيما عرف باسم «عدم الانحياز» أو «الحياد الايجابي». استطاع العالم الثالث ان يبلور وعياً إنسانياً جديداً ناشئاً في مقابل الوعي الاوروبي القديم الآفل. لأن شعوب العالم الثالث شعوب تاريخية كما هو الحال في الصين والهند ومصر فان ريادتها اليوم انما هو لحاق بريادتها الأولى وكأن التاريخ يكرر نفسه مرتين، وكأن الانسانية ترى نهضة جديدة لشعوب الشرق بعد أفول الغرب[12].

ان أزمة الغرب ليست أزمة القيادة السياسية وحدها بل أزمة حضارية في أساسها، أزمة تصور وسلوك، أزمة نظر وعمل بعد ان جرب الوعي الأوروبي كل شيء وانتهى إلى لا شيء. ان شعوب العالم الثالث بما تملكه من وعي انساني جديد يمثل انسانية جديدة قادرة على ان تقوم بدور القيادة محل الغرب. فهي التي ما زال لديها مشروع جديد بدلاً من المشروع الأوروبي القديم الذي انتهى إلى الفشل: مزيد من الانتاج لمزيد من الاستهلاك لمزيد من السعادة. أما المشروع الجديد فهو التنمية في مواجهة التخلف، والتحرر في مواجهة الاستعمار، والحرية ضد القهر، والعدالة الاجتماعية في مواجهة التفاوت الطبقي بين الاغنياء والفقراء، بين من يملكون كل شيء ومن لا يملكون شيئاً، والتأكيد على الهوية في مواجهة التغريب، والدعوة إلى الوحدة في مواجهة التجزئة، وتجنيد الجماهير ومبادرات الشعوب في مواجهة القيادات البيروقراطية والحاسبات الآلية وتحليل المعلومات.

ان انخفاض الروح المعنوية في الغرب انما هو احساس طبيعي نتيجة لانتقال القيادة من أوروبا الى غيرها. لم تعد أوروبا واثقة من قيادة نفسها أو غيرها. تبعثرت سيادتها التاريخية في عصر البعثرة والتفكك، وتفككت عرى الروابط بين الأوروبيين. وقد حاولت تغطية ذلك بإحياء العواطف القومية التقليدية ولكن المحاولة انتهت إلى طريق مسدود في عصر الكيانات الكبيرة. أما الشيوعية فلم يتمثلها أحد لأنها تصطدم بالفردية. قد تستطيع البلشفية تغيير الروح الاوروبية وانعاش الوعي الاوروبي واعطاء أمل جديد ولكنها أيضاً تقع في البيروقراطية، وتصبح فريسة للطبقات الجديدة ولجهاز الدولة باسم السيطرة المركزية والسلطة الواحدة. اما ثورات الشباب فقد كانت الوهج الاخير قبل انطفاء الشمعة، حشرجة الموت. لم تحقق شيئاً وتحولت الثقافة المضادة إلى برامج الاعلام في الثقافة والفن.

والسؤال الآن بالنسبة لاسبانيا: إلى أي عالم تنتسب؟ الى العالم الاول كفرنسا وانجلترا والمانيا واليابان وامريكا وروسيا أم إلى العالم الثالث ومجموع شعوب القارات الثلاث ام إلى العالم الثاني مجموعة البلاد المصنعة حديثاً مثل كوريا الجنوبية وتايوان وهونج كونج وسنغافورة ام إلى العالم الرابع، أثيوبيا وتشاد الذي يئن من أخطار المجاعة والقحط أو الذي يعيش تحت مستوى خط الفقر؟ واضح ان اورتيجا يعتبر اسبانيا بلداً أوروبياً ينطبق عليه ما ينطبق على المانيا وفرنسا وانجلترا وسائر البلاد الاوروبية. لم يتحدث أورتيجا عن خصوصية البحر الأبيض المتوسط وقرب شاطئيه الشمالي والجنوبي كما فعل فرنان برودل F.Braudel فلربما وجد اسبانيا هناك كحلقة اتصال بين الشاطئين، الشمال والجنوب.

وختاماً، ما هي الدلالة السياسية لكتاب أورتيجا الأول «ثورة الجماهير»؟ في حقيقة الأمر يظل الكتاب محيّراً أو مثيراً بعض التساؤلات والاشتباهات التي يصعب الاجابة عليها. هل القصد هو نقد جماهيرية القرن الماضي وثوراته دفاعاً عن فردية هذا القرن؟ هل القصد هو نقد الماركسية دفاعاً عن الديموقراطية الليبرالية؟ هل القصد جعل النقد المبطن للاشتراكية دفاعاً عن الرأسمالية؟ هل ثورة الجماهير ضد ذاتها أم ضد الآخر؟ هل هي مفهوم ايجابي أم مفهوم سلبي؟ هل هو حكم واقع ام حكم قيمة؟ ألم يفصل أورتيجا بين السياسة والاقتصاد وجعل كل تحليلاته سياسية أكثر منها اقتصادية بل في الفلسفة السياسية أكثر منها في النظم السياسية؟ هل هناك طبقات بشرية أم طبقات اجتماعية والا كان المقصود النقد المبطن لماركس؟ اليس أورتيجا فيبراً آخر مهمته وضع بديل للماركسية مرة بالتركيز على العقل الحيوي ومرة أخرى بالتركيز على العقل النظري أو التنظير؟ وماذا عن نقد الدكتاتورية المسيطرة على أسبانيا ونظام الملكية؟ وماذا عن الجمهوريين الذين كان أورتيجا مفكرهم الأول؟ لماذا لا تصدق ثورة الجماهير على ثورة الجمهوريين في مقابل الملكيين ابان الحرب الاهلية الاسبانية؟ ولماذا لا تكون ثورة الجماهير ديموقراطية بدلاً من التقابل بين الجماهير كنظام جماعي وبين الديموقراطية الليبرالية كنظام فردي؟ اليست الديموقراطيات الجماهيرية المباشرة اكثر فعالية من الديموقراطيات الصورية القانونية؟ يصعب الاجابة على ذلك كله اذ إن معرفة المقاصد أصعب بكثير من معرفة الالفاظ. يبدو أن أورتيجا يرفض كل شيء ويميّع كل المتناقضات. فلا التاريخ يسير حتماً نحو الليبرالية الديموقراطية ولا هو يسير حتماً نحو الاشتراكية. لا اليمين بقادر على القيادة ولا اليسار نظراً لأن كل فريق يلعب لعبة الآخر ويزايد عليه. اليمين واليسار كلاهما نصف شلل خلقي، يطمس معالم الواقع، اليمين يعد بالثورات واليسار يقدم الدكتاتوريات! ان مجموع هذه الاشتباهات التي تحوط بأورتيجا تجعله أقل وضوحاً من استاذه أونامونو الذي أخذ موقفاً واضحاً وناقداً من الغرب. أورتيجا بنياته المعلنة قد يكون أقرب إلى الوجودية اليسارية مثل سارتر وكامو وميرلوبونتي وباهدافه غير المعلنة قد يكون أقرب إلى الوجودية اليمينية مثل جابريل مارسل وكارل ياسبرز[13]. وفي النهاية يبدو أن موقف أورتيجا، مفكر الجمهوريين الأول، لا يختلف كثيراً عن مصير الحرب الأهلية الاسبانية.

الحواشي

(1) د. حسن حنفي: أونامونو والمسيحية المعاصرة، في قضايا معاصرة، الجزء الثاني، في الفكر العربي المعاصر، دار الفكر العربي، القاهرة 1976؛ دار التنوير بيروت 1982

(2) اعتمدنا في التحليل على الترجمة الفرنسية للكتاب وهي:
José Ortega Y Gasset: La Revolte des masses Trad. par Louis Parrot, Stock, Paris, 1961.

(3) Ortega Y Gasset: Ideés et Croyances

(4) Ortega Y Gasset: The Idea of Principle in Leibnitz and the Evolution of Deductive Theory.

(5) يصعب تحديد موعد ظهور مؤلفات أورتيجا بدقة. فقد نشر معظمها في المجلات الثقافية خاصة مجلة «الشمس» والمجلة التي أسسها أورتيجا نفسه «مجلة الغرب» ثم جمعت بعد ذلك في مؤلفات. ومعظم التواريخ للكتب وليس للمقالات باستثناء «الانسان والأزمة»،

«ما هي الفلسفة»، «بعض دروس في الميتافيزيقا»، «تفسير للتاريخ الشامل»، وقد يضم مؤلف واحد مجموعة من المقالات على فترات مُتباعدة مثل «التطابق والحرية». وقد ينشر المقال الواحد في أكثر من كتاب كما هو في كتبه عن «الفن والنقد الفني».

(6) Jose Ferrater Mora: Ortega Y Gasset, An Outline of his Philosophy, p. 9-15, Browes & Browes, London, 1956.

(7) Hassan Hanafi: Dialectics of violence and nonviolence, Amman, Jordan, 1986.

(8) د. حسن حنفي: «موقفنا من التراث الغربي» في قضايا معاصرة، الجزء الثاني، في الفكر العربي المعاصر، دار الفكر العربي، القاهرة، 1976؛ دار التنوير، بيروت 1982

(9) حسن حنفي: الرأسمالية والدين، حوار مع ماكس فيبر، المصدر السابق.

(10) لسنج: تربية الجنس البشري، دار الثقافة الجديدة، القاهرة 1976، دار التنوير، بيروت 1982.

(11) تكرار الألفاظ على النحو الآتي تقريباً: أوروبا 94؛ أوروبي 75؛ الغرب 17؛ أسبانيا 19؛ اسباني 12؛ فرنسا 16؛ فرنسي 12؛ انجلترا 13؛ انجليزي 18؛ امريكا 12؛ روما 10؛ اليونان 7. . . الخ.

(12) حسن حنفي: «موقفنا من التراث العربي»، في قضايا معاصرة، الجزء الثاني، في الفكر الغربي المعاصر، دار الفكر العربي، القاهرة 1976؛ دار التنوير، بيروت 1982،

Hassan Hanafi: The New Social Science, UNU Tokyo, 1987.

د. أنور عبدالملك: ريح الشرق، دار المستقبل العربي، القاهرة: 1985.

(13) د. حسن حنفي: «أونامونو والمسيحية المعاصرة» في قضايا معاصرة، الجزء الثاني، في الفكر الغربي المعاصر، دار الفكر العربي، القاهرة 1976؛ دار التنوير بيروت 1982.